الإلـه والدّولـة

تأليـف : ميخائيل باكونين ـ تعريب : جلال المخ .



كتاب المعارف يصدر عن دار المعـارف

ميخائيل باكونين

الاله والدولة

تعريب جلال المخ



دار المعارف للطباعة و النشر
سوسة - تونس

الرقم المسند من طرف الناشر 92/460
تدمك : 9 _ 209 _ 16 _ 9973 ISBN

وَمَا المهمَّةُ التي رَسَمْتُهَا لِنَفْسِي بيَسِيرةٍ، فَأَنَا أَعْلَمُ هَذَا. وَقَـدْ أُتَّهَمُ بِالعُجْبِ لَوْ وَضَعْتُ في هَذَا العَمَـلِ أدْنَى تَبَـاهٍ شَخْصِيٍّ، وَلَكِنْ أَسْتَطِيعُ أنْ أُطَمْئِنَ القَارِئَ . . . فَأَنَا لَسْتُ عَالِمًا وَلاَ فَيْلَسُوفًا، وَلاَ حَتَّى كَاتِبًا مُحْتَرِفًا. لَمْ أَكْتُبْ في حَيَاتي إلاَّ قَلِيلاً، وَمَـا فَعَلْتُ ذَلِـكَ إلاَّ مُرْغَـمًا، أَيْ كُلَّمَا كُنْتُ مَدْفُوعًا بِاقْتِنَاعٍ مُنْفَعِلٍ يَحْمِلُنِي عَلَى مُغَالَبَةِ نُفُورِي الغَرِيزِيِّ مِنْ إظْهَارِ ذَاتِي أَمَامَ العُمُومِ.

فَـمَنْ أَكُـونُ يَا تُرَى، وَمَـا الذِي يَدْفَعُنِي الآنَ لِنَشْرِ هَذَا العَمَـلِ؟ أَنَا هَائِمٌ بِالبَحْثِ عَنِ الحَقِيقَةِ وَعَدُوٌّ لَدُودٌ لِلأَوْهَامِ المضِرَّةِ . . . أَنَا عَاشِقٌ مَجْنُونٌ لِلحرِّيَةِ وَأَعْتَبِرُهَا المجَـالَ الأَوْحَدَ الذِي يُمْكِنُ أنْ يَتَفَتَّقَ فِيهِ وَيَتَرَعْرَعَ ذَكَاءُ البَشَرِ وَكَرَامَتُهُمْ وَازْدِهَارُهُمْ . . .

ميخائيل باكونين

ميخائيل باكونين

(1814 ـ 1876)

ولـد ميخـائيل ألكسندروفيتش باكونين ببلدة برياموخينو بولاية تفير في روسيا. وكان أبوه سيّدا مطاعا وملحقا بسفارة فلورنسا ثم نابولي، والتحق بمدرسة سان بيترسبورق إلى ان عيّن سنـة 1853 ضابط مدفعيّة لكنـه آثر ان يستقيل بعد بضعة أشهر نتيجة لتحرّر أفكاره وميله إلى مواصلة الدراسة والاطّلاع. ولم يلبث ان سافر إلى موسكو وانهمك في الدرس والتحصيل و اكتشف في ذلك الوقت فلسفة هيقل و بعد خمس سنوات أمضاها في حياة بوهيميّة تلائم مزاجه المستقل، انتقل إلى برلين عاصمة بروسيا انذاك فتردّد على الحلقات الهيقلية واتضحت نزعته الثوريّة في بحث بعنوان « الثورة في ألمانيا » سنة 1842 ، ونشره باسم جولّس اليزار في المجلّة الالمانية التي كانت منبر اليسار الهيقلي، و فيه يظهر اعتناقه للجدليّة الهيقليّة و إيمانه بضرورة الثورة.

وسافر سنة 1844 إلى باريس أوّل مرّة، وفيها تعرّف إلى لاجئين ألمـان منهم كارل ماركس، وإلى كثير من المفكرين والأدباء الفرنسيين منهم "جورج صاند،" وخاصّة "بطرس جوزيف برودون" الـذي قال عنـه : « إنه أحد الفرنسيين القلائل الذين يسترعون الانتباه في هذا العصر ».

وأبعد من فرنسا بطلب من حكومة روسيا لكنه عاد إليها سنة 1848 وأخذ يبثّ أفكاره وساهم في ثورة 48 فكان وراء المتاريس عبقريّ الثورة واختلف إلى أماكن القتال وشارك في المعارك.

ثم انتقل إلى مدينة دريسد ونظّم ثورة بمعيّة ريتشارد فاقنر (R. WAGNER)، ذلك الذي سيصير عبقريّ الموسيقى الألمانيّة، إلا أنه ألقي عليه القبض بعد تمكن فاقنر من الفرار، وانتقل من سجن إلى سجن حتى سلم إلى السلطات الروسيّة التي حكمت عليه بالإعدام ثم بالأشغال الشاقّة المؤبّدة في سيبيريا سنة 1857، بعد ان خفّف القيصر الحكم.

ولم يبق باكونين في سيبيريا إلا أربعة أعوام و هرب عبر اليابان والولايات المتّحدة واستقرّ بلندن مدّة قبل أن يشارك في الثورة البولونيّة سنة 1863، وأثناءها عاش مغامرات كثيرة. بل انه قرّر أن يبحر والفيالق الثوريّة إلى الضّفة الروسيّة من البلطيق لولا أن خذله بعض الملاّحين الذين استأجرهم.

ثم انخرط في الأمميّة الأولى للعمّال وبدأ ينشر فيها أفكاره. وبدأ منذ ذلك الوقت تصادمه مع كارل ماركس، فأسّس سنة 1868 فرقة الاخوة الأمميين والاتحاد الاشتراكي الديمقراطي الذي كان يدعو إلى التخلص من الأديان وإزالة الفوارق بين الطبقات والمساواة بين الرجل والمرأة وجعل الأراضي والثروات

مشاعا بين الناس والقضاء على الحكومات وهدم كل سلطة وسلطان.

وتـأتي سنة (1870 . 71) وهي سنة مليئة بالأحداث، فقـد نشبت فيها الحرب الألمانيّة والفرنسيّة وانهزمت فرنسا، وفيها تكونت كمّونة باريس قبل أن تسحقها جيوش فرساي. وهي سنـة هامـة جدا في حياة باكـونـين كذلـك ففيها بلغ السادسة والخمسين من عمره، وقد كان آنذاك ذا هيبة كبيرة في الأوساط الثورية في أوربّا الغربيّة، فهو رجل كل الثورات التي سانـدهـا أو شارك فيهـا بصـورة فعّـالة مثل ثورة 1848 بفـرنسـا، وهـو الذي قاد الثورة الأهليّة ببراق، ونظّم ثورة دريسد وأشرف عليها، كما أمضى السنين الطويلة بالسجون الألمانيّة والنمساوية والرّوسية، وعاش المنفى بسيبيريا، لذلك كان كلّ من يكتب عنه يصفه بالجبّار الذي كلّلت تلك الآلام المبّرحة والاصرار العنيد رأسه بهالة من التقدير. وقد وصفه "هارتزنHERZEN" « بالجبّار ذي رأس الأسد ». إلا أنه أسد أضنتـه التجارب إذ لن يعيش سوى ستّ سنوات أخرى. ورغم ذلك الضّنى فقد كان يهتزّ لأدنى انتفاضة شعبيّة وتسكنه طاقة هائلة تدفعه للتحرّك أو الكتابة. ولم يكتب باكونين في حياتـه كما في هذه السنة فقد ألّف « رسالة إلى فرنسي » فيما يقـارب المـائة صفحة، و « الامبراطورية الغنوطيّة الجرمانيّة والثـورة الاجتماعية » الذي تبنّى فيه قضيّة فرنسا ضدّ ألمانيا

دليلا على حبّه الكبير لفرنسا، والذي رأى فيه أوان قيام الثورة التي يجب أن تستغّل ظروف الحرب تلك. كما كتب "الاله والدولة" و "كمّونة باريس ومفهوم الدولة"، وثلاث محاضرات ألقاها على الأمميين وعدّة رسائل بعث بها إلى العمّال والأصدقاء. و "الاله والدولة" عمل غير مكتمل، لأن باكونين كان اعتاد أن يكتب أعمالا كثيرة في الوقت نفسه، ولم يكن له الوقت الكافي لينهي كل ما قد شرع فيه ولا يصل مؤلف إلى نهايته حتى يبدأ في تحرير مؤلفات أخرى، وذهبت كل المحاولات للعثور على باقي المخطوط سدى. ولم يصدر الا بعد وفاته بستّ سنوات وفيه عرض مسائل فلسفية كثيرة وناقش فلسفة المثاليّين والألمانيين والعقديين وبيّن استمداد الدولة شرعيتها من الدين، وهاجم الخطر الذي يمثل تهديدا محيقا بمصير الانسانية وهو خطر العلم وحكومة العلماء التي تنقلب إلى أوليغارشيا مستبدّة وتحوّل العلم إلى لاهوت جديد.

أما "كمّونة باريس ومفهوم الدولة" الذي وضعه إثر فشل الانتفاضة العمّالية التي استغلّت سقوط الامبراطوريّة الثانية واستولت على باريس، فقد تغنّى فيه بالروح البطوليّة لتلك التجربة الجريئة وأظهر فيه الفرق بين تصوّراته وبين تصوّرات الشيوعيين واختلافهم حول مفهومي السلطة والثورة، ونعتهم بالاستبداديين الذين يدعون إلى تأسيس ديانة الدولة وختمه

بالعودة إلى موضوع العلاقة الوثيقة بين الكنيسة والدولة أي عدوّيه اللدودين كما كان يحلو له أن يقـول، وبـالدعوة إلى القضـاء على هاتـين المؤسستين الاستبداديتين حتى لا تكون تطلّعات ذلك العصر حلما كاذبا.

ونتيجة لهذه الأفكار المعادية للحكوميّة التي كان يبشّر بها ماركس، أقصي باكـونين وأتباعه من الأمميّة وكانت القطيعة النهـائيّة بين الـرجلين سنـة 1872 أثنـاء مؤتمـر "لاهاي" واتخذت أفكار باكونين صيغتها النهائية في كتاب "في الدولة والفوضى" الـذي وضعه في تلك الفترة، وبيّن فيه أن كل حكم ولـو كان ثوريّا يخون الشعب لأنـه يسعى لأن يدوم. وانصرف باكونين إلى تأليف الفرق التابعة له.

وفي الأعوام الأخيرة من عمره، اشتدّت عليه مطالبة دائنيه فراح يتنقّـل من مكـان إلى مكان حتى وافاه الموت في بارن بسويسرا سنة 1876 في الثانية والستين من عمره وانتهت حياته المليئة بالرفض والمحاولات والآلام.

مراجع عن سيرة
مياخائيل باكونين

1) Fernand RUDE :Michel Bakounine de la guerre à la commune.

Editions anthropos Limoges - France - Janvier 1972.

2) Dictionnaire Encyclopédique Larousse

- Librairie Larousse 1987.

3) Henri ARVON : L'anarchisme.

Coll. Que sais-je ?

4) André RESZLER : L'esthétique anarchiste.

Coll. Que sais-je ?

الاله والدولة

توجد ثلاثةِ عناصر أو ثلاثة مبادئ اساسيّــة تمثل الشروط الجوهريّة لكلّ تطوّر بشريّ جماعيّ أو فرديّ عبر التاريخ هي :

1) الحيوانيّة البشريّة.

2) التفكير.

3) الثورة.

ويتطابق بالضبط مع الشرط الأوّل الاقتصاد الاجتماعي والخاصّ ومع الثاني العلم ومع الثالث الحرية.

والمثــاليّون المنتمــون إلى مختلف المــدارس وكــذلــك الارستقراطيون والبرجوازيّون وعلماء اللاّهوت والميتافيزيقيّون والسّــاسة والأخلاقيّون ورجال الدين والفلاسفة أو الشعراء دون أن ننسى علماء الاقتصاد الهائمين كما نعلم في عبادة المثل العليا بكلّ جموح، كل هؤلاء يغتاظون كثيرا عندما يقال لهم إن الإنسـان بذكـائـه الخـارق وبـأفكـاره السامية وتطلّعاته اللامحدودة ليس سوى نتاج « للمادة الخسيسة » تماما مثل كلّ ما هو موجود في العالم.

ونستطيع أن نجيبهم بأن المادّة التي يتحدث عنها الماديّون، أي المـادّة المتحـرّكة والفعّالة والمنتجة بصفة تلقائية ودائمة، المـادّة المحـدّدة كيميائيا وعضـويّا والمتجلّية في الخصائص أو القـوى الميكـانيكية أو الفيزيائية، والحيوانيّة أو الـذكية التي تلازمها بالضّرورة ليس لها ما يربطها بمادّة المثاليينّ الخسيسة،

فهذه الأخيرة التي ليست سوى ثمرة تجريدهم الخاطئ هي بالفعـل شيء سخيف وجامد وثابت وعاجز عن أدنى إنتاج وهي خيال قبيح يقابل خيالهم الجميل الذي يسمّونه الاله، الكـائن الأسمى الـذي تمثّـل إزاءه المادّة، أي مادّتهم التي أفرغوها من كلّ ما يكوّن طبيعتها الحقيقيّة، بالضرورة العدم الكلّي. لقد انتزعوا من المادة الذكاء والحياة وكل الخاصيّات المحدّدة وكلّ العلاقات الفاعلة أو القوى بل حتى الحركة التي لولاها، لما كانت المادّة ثقيلة أبدا ولم يتركوا لها شيئـــا غيـــر اللاتحايزية والسكون المطلق في الحيّز.

ونسبوا كل هذه القوى والخاصّيات والظواهر الطبيعيّة إلى الكـائن الخياليّ المخلوق من تصـوّرهم التجريدي ثم قلبوا الأدوار فسمّـوا ثمرة وهمهم تلك، ذلك الشبح، ذلك الإله الذي هو العدم، الكائن الأسمى، وأعلنوا كنتيجة ضروريّة أن الكائن الحقيقيّ، أي المادّة، أي العالم، هو العدم. ثم يأتوننا بعد ذلك قائلين بكل وقار إن المادّة عاجزة عن أي إنتاج وعاجزة حتى عن التحرك من تلقاء ذاتها وهي لابدّ أن تكون بالتالي مخلوقة من قبل إلههم.

فمن على حق، المثاليّون أم الماديّون ؟

بعد أن نطرح السؤال، يصير التردّد مستحيلا، فالمثاليّون بلا ريب على خطإ والمـاديّون مصيبـون. نعم، إن الأفعال

تتصدّر الأفكار. نعم، إن المثال كما قال برودون Proudhon ليسِ إلا زهرة تكوّن شروط وجودها الماديّة الجذر. نعم، إن كامــل تاريخ الإنسانيةّ الفكــري والأخــلاقي والسّياسي والاجتماعي انعكاس لتاريخها الاقتصادي.

وكل فروع العلم الحديث أي العلم الص حيح والموضوعي تتعــاضــد لتعــلن هذه الحقيقــة الكــبرى والأســاسية والحــاسمة : إن العالم الاجتماعي أي العالم البشري بحصر المعنى، أي البشرية في كلمة واحدة، ليس إلا تطوّر الحيوانيّة الأرقى ومظهرها الأعلى، بالنسبة إلينا وإلى كوكبنا على الأقل. ولكن بما أن كل تطوّر يقتضي بالضرورة نفيا أي نفي الأساس أو نقطة الانطلاق فإن البشرية هي في نفس الوقت وبالضرورة نفي الحيوانيّة المتعقّــل والتدريجيّ، ولأن هذا النفي عقــلي وطبيعي ولأنــه عقـلي بما أنـه طبيعيّ وفي الآن نفسه تاريخي ومنـطقي وكـذلـك حتمي مثل كل تطوّرات كامل القوانين الطبيعيّة في العالم ومثل كل نتائجها، فهو الذي يكوّن المثال ويخلق عالم اليقينيّات الذهنية والأخلاقية والأفكار.

نعم، إن أجـدادنـا الأوائل، إن أوادمنا وحوّاءاتنا، إن لم يكـونوا قِردة فلقد كانوا أبناء عمّ حميمين للغوريلاّ وللفصائل القــارتِــة والحيوانات الذكيّة والشرسة والمتميّزة إلى حدّ يفوق باقي الحيوانات من كلّ الأصناف الأخرى بملكتين ثمينتين هما ملكتا التفكير والحاجة إلى الثورة.

والكتاب المقدّس، وهو كتاب مهمّ وعميق جدّا في بعض جوانبه إذا ما اعتبرناه من أقدم تجسّدات الحكمة والخيالات المبدعة البشريّة، يعبّر عن هذه الحقيقة بطريقة ساذجة جدّا في حديثه عن أسطورة الخطيئة الأصليّة، فهو الذي كان بلا ريب من بين كل الآلهة التي عبدها البشر أشدّها غيرة وغرورا وشراسة، وأظلمها وأحبّها للدّماء والطّغيان وأكثرها عداوة لكرامة البشر وحرّيتهم، قد خلق آدم وحوّاء لا نعلم بسبب أيّ نزوة من النزوات، بل ربّما ليمنح نفسه عبيدا جددا، ووضع بكل سخاء، تحت تصرفهما الأرض بكامل خيراتها ودوابّها ولم يجعل لهذه المتعة الكاملة غير حدّ وحيد إذ منعهما عن قصد من الاقتراب من ثمار شجرة المعرفة. وقد أراد بهذا أن يبقى الانسان المسلوب من القدرة على إدراك ذاته دابّة إلى الأبد يركع على أربع أمام الإله الحيّ خالقه وسيّده، إلا أن الشيطان أتى - ذلك الثائر الأبديّ وأول مفكر حرّ ومحرّر العوالم - وجعل الانسان يخجل من جهله ورضوخه الحيوانيين فحرّره وطبع على جبينه خاتم الحرية والانسانية لما دفعه إلى العصيان والأكل من شجرة المعرفة.

ونعرف بقيّة القصة، فالاله الذي تمثّل معرفته بالغيب إحدى ملكاته الالهية كان عليه أن يعلم مسبّقا بما سيحدث، لكنه غضب غضبا عنيفا وسخيفا فلعن الشيطان والانسان والعالم الذين خلقهم بنفسه ضاربا بهذه الطريقة نفسه في

صنيعه كما يفعل الأطفال عندما يغتاظون. ولم يكفه أنه لعن جدَّيْنا في حاضرهما بل لعنهما في كل الأجيال القادمة رغم براءتها من جريمة الأجداد. ويجد علماء اللاّهوت عندنا من كاثوليك وبروتستانتيين هذا شديد العمق والصحة لأنه بالضبط جائر ولا معقول إلى حدّ البشاعة. ثم لما تذكّر أنه ليس إله انتقام وغضب فحسب بل إله محبّة كذلك، وبعد أن وسم حياة بضعة مليارات من البشر المساكين بالآلام وحكم عليهم بالعذاب في جحيم أبديّ، رأف على الباقي، وليخلّصهم موّفقا بين محبّته الأزليّة والإلهيّة وبين غضبه الأزليّ والإلهي، ومتعطّشا دوما إلى الضحايا والدماء، أرسل إلى العالم ابنه الوحيد ضحيّة مكفّرة حتى يقتله البشر. وهذا ما يعرف بمبدإ الخلاص، أساس كل الديّانات المسيحيّة ولكن هل أنقذ المخلّص الرّباني العالم البشريّ ؟ كلاّ، لأنه لن يوجد في الجنّة التي وعد بها المسيح سوى القليل من المختارين ونعرف هذا لأنه معلن رسميّا. أما البقيّة أي الأغلبيّة الساحقة من الأجيال الحاضرة والمقبلة فإنهم سيخلدون في نار الجحيم. وفي الأثناء، فإن الاله ولمؤاساتنا بعدله وكرمه الدائمين، يسلّم الأرض إلى حكومات نابليون الثالث وغليوم الأول وفرديناند النمسا وإسكندر كل البلدان الروسيّة.

تلك هي الخرافات اللامعقولة التي تذاع والعقائد البشعة التي تدرّس في قلب القرن التاسع عشر داخل كل المدارس

الشعبيّة في أروبّا بأمر مقصود من الحكومات. ويسمّى هذا "تحضير الشعوب" ! أليس من البيّن أن كل الحكومات تمارس عمليّة تسميم مدروس وتبليد مبيّت للعقول ضدّ الطبقات الشعبية ؟

وتلك هي الوسائل السافلة والمجرمة التي تستخدمها الحكومات للابقاء على الشعوب في عبوديّة أبديّة حتى تتمكن من ابتزازها أكثر بلا ريب. فماذا تمثّل جرائم كل تروبمانات الدنيا (Tropmann) إزاء هذه الجريمة اللاإنسانية التي تقترف يوميّا في وضح النهار وفي كامل أرجاء العالم المتحضّر بأيدي أولئك الذين يجرؤون على أن يتسموا أوصياء على الشعوب وآباء لها ؟

أعود إلى أسطورة الخطيئة الأصليّة، فقد شهد الاله أن الشيطان على صواب واعترف بأن الشيطان لم يخدع آدم وحوّاء لما وعدهما بالمعرفة والحريّة جزاء للتمرّد الذي حثّهما عليه لأنهما ما إن أكلا من الشجرة المحرّمة حتى قال الاله في نفسه (انظر الكتاب المقدّس) : « هو ذا الانسان قد صار كواحد من الآلهة عارفًا الخير والشّر فلنمنعه إذن من الأكل من شجرة الحياة حتى لا يصبح خالدا مثلنا »(1).

---

1) الآية كما وردت في الكتاب المقدس : « وقال الرب الإله : هو ذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشّر والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنّة عدن . . . » (تكوين 3 : 22 . 23).

ولنطرح الآن القسم الخرافي من هذه الأسطورة جانبا ولنتفحّص مغزاها الحقيقي والجلّي مع ذلك ا فقد تحرّر الانسان وانفصل عن الحيوانيّة وتكوّن إنسانا مبتدئا تاريخه، وتطوّره البشريّ بالخصوص بعمليّتي تمرّد ومعرفة أي بالثورة والتفكير. إلا أن نظريّة المثاليين تقدّم لنا العكس تماما. إنه الانقلاب الكامل لكلّ هذه التجارب البشريّة ولهذا العقل السليم العامّ والمشترك الذي يمثّل الشرط الأساسيّ لكلّ اتفاق بشريّ والذي بتدرّجه من هذه الحقيقة البسيطة المتّفق عليها منذ القدم والمتمثلة في أن (2 + 2) = 4 حتى بلوغه الدقائق العلميّة المتناهية الجلال والتعقيد، وبرفضه في أيّ حال لكل ما لم تثبته التجربة وملاحظة الأشياء والأحداث، يمثّل الأساس الجدّي الوحيد الذي تنبني عليه كل المعارف الإنسانيّة.

وندرك جيّدا تطوّر العالم المادّي المتعاقب وكذلك تطوّر الحياة العضويّة الحيوانيّة وذكاء الانسان المتدرّج سواء كان فرديّا أو اجتماعيّا. إنه حركة طبيعيّة للغاية تتدرّج من البسيط إلى المركّب ومن تحت إلى فوق ومن السفلي إلى العلويّ، وهي حركة مطابقة لكل تجاربنا اليوميّة وبالتالي لمنطقنا الطبيعيّ كذلك وللقوانين الخاصّة بذهننا الذي لا يمكنه أن يكون أو يتطوّر إلا بمعونة تلك التجارب بالذات، ولذلك ليس هو إلا صورتها الذهنية والدماغيّة وخلاصتها المفكرة.

ولكن عوض أن يتبع المفكرون المثاليّون الطريق الطبيعية فيتــدرّجـوامن تحت إلى فوق ومن البسيط نسبيّا إلى الأكثـر تعقيدا، وعـوض أن يرافقوا بحكمة وتعقّل الحركة المتدرّجة والفعلّية التي تنـطلق من العالم المسمّى لا عضويا إلى العالم العضويّ النباتي ثم الحيواني ثم البشري بالخصوص، أي من المـادة أو الكائن الكيميائي إلى المادّة أو الكائن الحيّ، ومن الكـائن الحيّ إلى الكـائن المفكر، فإننا نراهم وقد أرهقهم الشبح الالهيّ الذي ورثوه من اللاهوت وأعماهم ودفعهم إلى أن يسلكوا الطريق المضادّة تماما ينطلقـون من فوق إلى تحت ومن العلويّ إلى السفلي ومن المعقد إلى البسيط، فيبدؤون من الالـه سواء كشخص أو جوهـر أو فكرة إلهيّة. وأوّل خطوة يقـومـون بها. هي تدحـرج مريع من أعـالي المثال الأبديّ السـامية إلى وحل العالم المادّي، أي من الكمال المطلق إلى النقص المطلق ومن الفكرة إلى الكائن أو بالأحرى من الكائن الأسمى إلى العدم. ولكن متى، وكيف، ولماذا قرّر الكائن الإلهي الخـالـد والـلامتنـاهي والمطلق الكمال أن يقوم بهذه السقطة المميتة واليائســة ولعلّ ذلك بسبب ضجره من نفسه بلا ريب؟ هذا ما لم يستــطع أي مثـالّي أو عالم لاهـوت أو ميتـافيزيقيّ أو شاعـر لا فهمـه ولا تفسيره للآخرين. وكل الـديانـات السـابقـة والحـاضرة وكـل النـظريات الفلسفيّة

« السامية » تدور حول هذا السّر الفريد الجائر* فكم من قدّيسين ومشّرعين أفذاذ وأنبياء ومسحاء بحثوا فيه عن الحياة فلم يجنوا سوى العذاب المبّرح والموت فافترسهم مثل أبي الهول في الأساطير القديمة لأنهم لم يستطيعوا تفسيره. وقد كتب فلاسفة كبار منذ هيرقليطس Héraclite وأفلاطون Platon حتى ديكارت Descartes وسبينوزا Spinoza ولايبنيتز Leibnitz وكانط Kant وفيخته Fichte وشيلّينق Schelling وهيقل Hegel دون أن ننسى فلاسفة الشرق، ووضعوا أكواما من المؤلفات وأحدثوا نظريّات مبتكرة ورفيعة جدّا ذكروا فيها كثيرا من الأمور الحسنة والعظيمة واكتشفوا حقائق خالدة لكنهم تركوا هذا اللغز الذي يمثّل موضوع أبحاثهم « الرفيعة » الأساسيّ مغلقا كما كان من قبلهم. ولكن بما أن الجهود الجبّارة التي بذلها أعظم العباقرة الذين أنجبتهم الانسانية والذين تعهّدوا بمتابعة هذا العمل السيزيفي مجدّدا لمدّة ثلاثين قرنا على الأقل، لم تفض إلا إلى جعل هذا السّر أكثر طلسمة وغموضا، هل يمكننا بعد هذا أن نأمل أن تكتشفه لنا التأملات الروتينيّة التي يمارسها بعض

---

* اسمّيه جائرا لأن هذا السر كان ولايزال تكريسا لكل الفظاعات التي ارتكبت ومازالت تُرتكب في العالم. واسمّيه جائرا لأن كل السخافات اللاهوتيّة والميتافيزيقيّة التي تفسد أذهان البشر ما هي إلا نتائجه الحتميّة (تعليق باكونين).

الأدعياء المتحذلقين حول ميتافيزيقيا مبتذلة ومتكلّفة، بينما حاد أولو الأذهان الحيّة والجدّية عن هذا العلم الملتبس الصّادر عن اتّفاق - يُفَسَّرُ بلا ريب تاريخيا - بين لا معقوليّة الايمان والعقليّة العلميّة السليمة ؟

من البديهي أن هذا اللغز الرهيب غير قابل للتفسير أي أنه لا معقول لأن اللامعقول فقط لا يترك مجالا للتفسير، ومن البديهي كذلك أنه على أي شخص يحتاج إليه لأن فيه سعادته وحياته أن يتخلّى عن عقله ليعود ان استطاع إلى الايمان السّاذج والأعمى والسخيف ويردّد صحبة ترتوليانوس Tertullien وصحبة كل المؤمنين الصادقين هذه الكلمات التي تلخّص بالضبط جوهر الدين : « أومن لأن هذا غير معقول ! ».

عندها يقف كل نقاش ولا يبقى سوى سخافة الايمان المنتصرة ولكن يبرز في الآن نفسه تساؤل :
« كيف يمكن ان تنشأ في ذات إنسان ذكيّ ومثقّف الحاجة إلى الايمان بهذا السر » ؟
إنه لأمر طبيعيّ جدّا أن يستقرّ الايمان بالاله الخالق المسيّر والحكم والسيّد والضّارب باللعنة ومخلّص العالم ووليّ نعمته ويبقى في نفوس الشعب وبالأخصّ في نفوس سكّان الأرياف وكذلك في بروليتاريا المدن لأن الشعب مازال للأسف شديد

الجهـل. وتعمـل كل الحكـومات على إبقائه في جهله بكلّ الجهود المدروسة لأنها ترى في ذلك الجهل - وهي ليست مخطئة فيما رأت - واحـدا من الشروط الأسـاسيّة التي تمثّل قوّتها. ويقبـل هذا الشعب التقاليد الدينيّة بحذافيرها ودون نقاش مادام مسحوقا بعمله اليوميّ ومحروما من الترفيه ومن النشاط الفكـري والمـطالعة أي من كلّ الوسائل ومن قسم هامّ من منشّطات التفكير في ذهن الانسان باختصار. وتحيط به هذه التقاليد منذ الصغر في مختلف ظروف حياته ويتعهّدها لتثبت في أعـماقـه جمع من المسممـين الرسميين من كل الأصناف الكهنـوتيّة والـلائكيّة حتى تمسي لديه ضربـا من العـادات الذهنية والأخلاقية الأقوى في معظم الأحيان من عقله السليم الطبيعي.

ويوجـد سبب آخـر ينشر بطريقـة ما معتقدات الشعب الـلامعقـولة ويبرّرها وهذا السّبب هو الوضعيّة البائسة التي حكم بها عليه نظام المجتمع الاقتصادي في أكثر بلدان أروبّا تقـدّمـا. فهذا النظام لا يوفّر له فيما يتعلّق بالأمور الذهنيّة والمعنـويّة وكـذلـك الماديّة إلا الحدّ الأدنى مما يتطلّبه الوجود البشريّ، ويحبسه في حياته مثل السجين في سجنه حيث لا أفق ولا منفذ بل ولا مستقبل كذلك. وإذا ما سلّمنا بما يقول الاقتصـاديّون لوجب أن يكون للشعب روح ضيّق إلى حدّ غريب بالإضافة إلى غريزة كغريزة البرجوازيين المسطّحة حتى

لا يشعر بالحاجة إلى الخروج من ذلك السجن، إلا أنه ليس ثمّـة إلا ثلاث وسـائل لتحقيق ذلك اِثنتان زائفتان والثالثة حقيقيّة. فأما الأوليان فهما الخمّارة والكنيسة أي مجون الجسد ومجون الذهن، وأما الثالثة فهي الثورة الاشتراكية القادرة أكثر من كل دعـايات ذوي التفكـير الحـرّ النـظرية على تدمـير المعتقـدات الـدينيّة والعـادات المـاجنة في نفوس الشعب. والعلاقة بين هذه المعتقدات والعادات أمتن مما يتصوّر بكثير. فبتعويض ملذّات المجون الجسدي والذهني الوهميّة والعنيفة في الآن نفسه بالمباهج اللّطيفة والثريّة التي تنبع من الانسانيّة النـامية في نفس كل فرد وفي نفـوس الجميع، تكون للثورة الاشـتراكية وحـدهـا القـدرة على غلق كل الخـمّارات وكـل الكنـائس في نفس الـوقت. وفي انتظار ذلك يؤمن الشعب بتلك المعتقـدات وإن لم يكن في ذلك على صواب فله على الأقلّ الحقّ فيما يفعل. إلا أنه توجد فئة من الناس عليهم وإن لم يؤمنوا، أن يتظاهروا بالايمان : أولئك هم معذّبو الانسانيّة ومضطهدوها ومستغلّوها، أي الكهان والملوك ورجال الدولة ورجـال الحرب والرأسماليون الحكوميّون الخواصّ والموظفون من كل الأصنـاف ورجـال الشرطـة والحـرس والسجـانون والجـلادون والمحتكـرون والمستنزفون والمقاولون والـمُـلّاك والمحـامـون والاقتصاديون والسّاسة من كل الاتجاهات إلى أدنى بائع توابل، كل هؤلاء يرددون بكامل التناغم ما قاله

فولتير Voltaire :

« لو لم يكن الإله موجودا، لوجب خَلْقُه » !

لأنه كما تفهمون : « لابدّ من دين للشعب، إنه صمام الأمن »!

وتوجد أخيرا فئة غير قليلة من الذين نفوسهم أمينة لكنها ضعيفة. فهم أذكى من أن يحملوا المبادئ المسيحيّة على محمل الجد، لذلك يرفضونها تفصيلا لكنهم لا يملكون لا الشجاعة ولا القوة ولا الارادة اللازمة لرفضها جملة. فيلقون بكل السخافات الدينيّة أمام النقد ويحتقرون كل المعجزات لكنهم يتشبّثون يائسين باللامعقولية الأساسية منبع كل اللامعقوليّات الأخرى ويتعلّقون بالمعجزة التي تفسّر باقي المعجزات الأخرى وتبرّرها أي بوجود الاله وإلههم ليس ذلك الكائن الشديد والقويّ إله علم اللاهوت الفعّال، بل هو كائن ضبابيّ وشفّاف ووهميّ إلى حدّ أنه يصير هباء إذا ظننّا أننا نمسكه، إنه سراب ووهج مستنقعي لا يدفئ ولا يضيء، ورغم ذلك يتمسّكون به ويتصورون أنه لو اختفى، لاختفى كل شيء معه. هؤلاء نفوسهم متردّدة وعليلة وتائهة على غير هُدى في الحضارة المعاصرة لا تنتمي لا إلى الحاضر ولا إلى المستقبل. إنهم أشباح شاحبون معلّقون إلى الأبد بين السّماء والأرض ويحتلّون بالضبط نفس المنزلة بين السياسة البرجوازيّة واشتراكية البروليتاريا ولا يجدون في أنفسهم قوّة على مواصلة

التفكـير إلى النهـاية ولا إرادة ولا عزمـا فيضيعـون وقتهم وجهدهم دائما في محاولة التوفيق بين ما لا يقبل توفيقا.

ويسمّى هؤلاء في الحياة العامّة بالاشتراكيين البرجوازيين. ومن المستحيل أن يتمّ معهم أي نقاش لأن السّقم أنهكهم.

إلا أنه يوجد قلّة من الرجال المشاهير لن يجـرؤ أحد على ذكـرهم دون تقـدير أو على التشكيك في صحّتهم المعـافاة وقدرتهم الذهنيّة ومصداقيتهم ويكفيني أن أذكر أسماء ماتسيني Mazzini وميشـلي Michelet وكيني Quinet وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill هؤلاء جميعا ذوو نفوس شهمة وقويّة. قلوبهم نبيلة وأذهانهم فذّة. إنهم كتّاب كبار أوّلهم بطل إصلاح وثورة عاشتهـا أمّـة عظيمة، وجميعهم رسل المثاليّة ومحتقرو الماديّة وخصـومهـا المتحمّسون، فهم بالتالي خصوم الاشتراكية في الفلسفة كما في السياسة.

لذلك يجب أن تتم مناقشة هذه المسألة معهم.

لنلاحظ بادئ ذي بدء أنه لا أحد من هؤلاء الرجال العظام الـذين ذكرتهم ولا أي مثالّي معاصر مهما كانت قيمته اهتم بالقسم المنطقيّ من هذه المسألة بدقّة. ولم يحاول أي واحد منهم أن يحلّ بطريقة فلسفيّة إمكانيّة قفزة الموت من مناطق الروح الخالدة والطاهرة إلى أوحال العالم الماديّ. أتراهم خشوا من التعرّض إلى ذلك التناقض المعقّد ويئسوا من حلّه بعد أن

فشل في ذلك كبار عباقرة التاريخ، أم تراهم اعتبروه قد حُلّ بما فيه الكفاية؟ ذاك سرّهم. أما الحقيقة فهي أنهم تركوا البرهنة النظريّة على وجود إله جانبا ولم يحلّلوا من ذلك سوى الأسباب والنتائج العمليّة فتحدّثوا عن الاله كما يُتحدّث عن أمر مُسلَّم به بالإجماع وبالتالي عن أمر لا يمكن أن يصبح موضوع أي تشكيك وليس لهم من حجّة سوى ملاحظة قدم هذا المعتقد والإجماع على التسليم.

وحسب رأي كثير من الرّجال والكتّاب الكبار، فإن هذا الاجماع أفضل من كلّ البراهين العلميّة. ويكفي أن أذكر أشهرهم، فقد عبّر عن ذلك بكلّ بلاغة جوزيف دي مايستر Joseph De Maistre وكذلك الوطني الايطالّي الكبير دجيوزيبّي ماتسيني Giuseppe Mazzini . وإن كان تفكير عدد ضئيل من مفكرين منطقيين وأفذاذ ولكن منعزلين، يناقض ذلك الإجماع فإنهم يقولون إنها غلطة أولئك المفكّرين وغلطة منطقهم لأن الإجماع الكلي والتبنّي العام والقديم لفكرة اعتبرا دوما برهان صحّتها المفحم، إذ ليس من الممكن أن يخطئ شعور كل الناس أو اعتقاد منتشر وثابت في كل زمان ومكان. فلا بُدّ ان هذه الأمور تضرب جذورها في ضرورة ملازمة حتما لطبيعة الإنسان. وبما أنه قد لوحظ أن كل الشعوب الماضية والحاضرة آمنت وتؤمن بوجود الاله فمن البديهي أن الذين شكّوا لسوء

حظّهم في وجـوده ومهما كان المنطق الذي أوصلهم إلى هذا الشك، ليسوا إلا استثناءات وشذوذات بل وحوشا.

هكذا إذن يكون قدم معتقد ما، والإجماع حوله، ضدّ كل علم وضدّ كل منطق حجّة كافية ودليلا قاطعا على صحته. ولكن لماذا ؟

لقد اعتقد كل الناس حتى مجيء قاليلي Galilée وكوبرنيك Copernic ان الـشـمس تدور حول الأرض. ألم يخطئ كل الناس ؟ وهـل ثمـة أقـدم من العبودية وأعمّ منها ؟ لعلّها الأدامة. *. وقد وجد دائما منذ نشوء المجتمع التاريخي إلى يومنـا هذا وفي كلّ زمـان ومكـان استغلال لنتائج الأشغال الشّاقة المسلّطة على الطبقات المسحوقة سواء كانت من العبيد أو الأقنان أو الأجراء، واضطهاد تسلّطه الكنيسة والحكومات على الشعـوب، فهل يجب أن نستخلص من هذا ان ذينك الاستغلال والاضطهاد ضرورتان لازمتان حتما لوجود المجتمع البشريّ ؟ هذه أمثلة تبيّن أن برهنة ألسنة الدّفاع عن الإله لا تعني شيئا إذ أنه لا يوجد في الحقيقة شيء أشمل من الجور والسخافة وأقدم منهما أما الحقيقة والعدالة فهما بالعكس أقلّ المفـاهيم شمـولا وأكثرها حداثة في تاريخ تطوّر المجتمعات الانسانيّة. وهذا ما يفسّر الظاهرة التاريخية الثابتة والمتمثلة في

---

* أكل لحم البشر.

أن الأوائل الذين بشروا ومازالوا يبشرون بهما، هم الذين عانوا ومـازالـوا يعـانـون الاضـطهـاد من قبـل ممثـلي المعتقـدات « الشاملة » و « العتيقة » الرسميين والمبرئين وفي أحيان كثيرة من قبـل تلك الطبقات الشعبيّة بالذات التي تتبنّى في آخر الأمر أفكارهم بعد أن تعذّبهم وتجعلها دوما تنتصر.

أمـا فيما يخصّنا، نحن الماديّون والاشتراكيون الثوريّون، فليس هنالك ما يثير استغرابنا أو ما يزعجنا في هذه الظاهرة التاريخية لأننا أقوياء في ضمائرنا وأقوياء في تعلّقنا بحقيقة هذا الهوى المعقول الذي يمثّل بمفرده قوّة هائلة لا يمكن أن يكون تفكـير خارجها، وأقوياء في حبّنا للعدالة وفي إيماننا الوطيد بانتصـار الانسـانية على كل الحيوانيات النـظريّة والعمليّة، وأقوياء أخيرا في ثقتنا وفي الدعـم المتبادل بين الأفراد القلائل الذين يشاطروننا الرأي، لذلك نذعن لكلّ النتائج المترتّبة عن هذه الظاهرة التاريخية التي نرى فيها تجسيدا لقانون اجتماعي يماثل كل القوانين الأخرى التي تسيّر العالم طبيعيّة وحتميّة وثباتا.

وهـذا القـانـون نتيجـة منـطقيّة تحتّمها أصول المجتمع البشري الحيوانيّة وإزاء كلّ الـبراهين العلميّة والفيزيولوجيّة والنفسيّة التي تراكمت في عصرنا هذا وكذلك إزاء مآثر الألمان الذين هزموا فرنسا، مقدّمين على ذلك برهانا ساطعا، يصبح معه

كل شكّ مستحيلا. ولكن مادمنا سلّمنا بهذه الأصول الحيوانيّة للإنسان فإن التاريخ يظهر لنا إذن نفيا ثائرا للماضي يكون تارة بطيئا وخاملا وهادئا وطورا متّقدا وجبّارا، ويتمثّل بالضبط في النفي التدريجي لحيوانيّة الانسان الأولى بتطوّر إنسانيّته. فقد انطلق الإنسان، ذلك الحيوان المفترس، قريب الغوريلا، من ليل الغريزة الحيوانيّة المدلهم ليبلغ نور العقل. وهذا ما يفسّر بطريقة طبيعيّة جدا كل هذياناته الماضية، ويجعلنا نصبر على بعض أخطائه الحاضرة. لقد انطلق من العبودية، وعبر العبوديّة الالهية التي تمثّل حدّا انتقاليّا بين حيوانيّته وإنسانيّته ليسير اليوم نحو افتكاك حريته البشريّة وتحقيقها. ويترتّب عن هذا أن قدم معتقد أو فكرة لا يقدّم أي دليل في صالحهما بل يجب أن يجعلهما على عكس ذلك موضع ريبتنا، لأن ما وراءنا هو حيوانيّتنا وما قدّامنا هو إنسانيتنا، أي النور الإنساني القادر وحده على تدفئتنا والإضاءة لنا والقادر وحده على تحريرنا وجعلنا كراما وأحرارا وسعداء، وعلى تحقيق أخوّتنا. وهو لا يكون في البداية أبدا بل يكون بالنسبة إلى العصر الذي نعيشه دائما في آخر التاريخ، فعلينا اذن ألاّ نَلْتَفت أبدا إلى ورائنا، ولننظر دائما إلى الأمام لأن شمسنا إلى الأمام وخلاصنا إلى الأمام، وإن كان من المسموح لنا أو حتى من النافع والضروري الالتفات لدراسة ماضينا فليس ذلك إلا لملاحظة ما كنا، وما يجب ألا نكون أبدا

وملاحظة ما اعتقدنا وما فكرنا وما يجب ألاَّ نعتقد ونفكر أبدا، وما فعلنا وما يجب ألا نفعل أبدا. هذا فيما يخصّ القدم، أما فيما يتعلّق بالإجماع على خطأ فما هو إلا دليل على أمر وحيد هو تماثل الطبيعة البشرية أو تطابقها التام في كل الأزمان وفي مختلف البيئات. وبما أنه لوحظ أن كل الشعوب آمنت في كل مراحل حياتها ومازالت تؤمن بالاله فعلينا ان نستخلص من ذلك ببساطة أن الفكرة الالهية النابعة من ذواتنا خطأ ضروريّ تاريخيّا في تطوّر البشرية، ونتساءل لماذا وكيف وقع هذا الخطأ في التاريخ ولماذا تسلّم به الأغلبية الساحقة من الجنس البشري وتعتبره حقيقة؟

ومادمنا لم نتعرّف على الكيفيّة التي نشأت بها فكرة وجود عالم فوطبيعيّ إلهيّ والتي حتّمت نشوء هذه الفكرة في تطوّر الوعي البشري التاريخي فمن العبث أن نقتنع علميّا بسخافة هذه الفكرة إذ لن نتمكن من تهديمها أبدا في أذهان الأغلبيّة لأننا لن نعرف كيف نهاجمها في أعماق الكائن البشري، أي هنالك بالضبط حيث نشأت. وهكذا يحكم علينا بصراع عقيم ليس فيه منفذ أو له انتهاء، فنكتفي بمقاومته مقاومة سطحيّة في تجسّداتها اللامحدودة التي ما إن تَنْهَدُّ لامعقوليتها تحت ضربات العقل السليم حتى تظهر مجدّدا في شكل آخر يماثلها سخافة. ومادام جذر كل اللامعقوليّات التي تعذّب كل الناس لم يتلف فإن الايمان بالاله سيبقى كاملا ولن يتوقّف

عن إنبات فروع أخرى. ولهذا السّبب نرى في أيّامنا هذه في بعض أوساط طبقات المجتمع العليا أن استحضار الأرواح يحاول أن يستقرّ على أنقاض المسيحيّة.

وعلينا أن نجتهد حتى نفهم التكوين التاريخي وتعاقب الأسباب التي طوّرت وأنشأت فكرة الاله في ضمير الوعي الإنساني. وهذا ليس في مصلحة الطبقات الشعبيّة فحسب بل في سبيل عافية عقولنا كذلك لأننا عبثا نقول ونتصوّر أننا ملحدون، ومادمنا لم نفهم تلك الأسباب فسنبقى دوما عرضة لسيطرة صراخ هذا الضمير العامّ علينا مادمنا لم نكتشف سرّه. ونظرا لضعف البشر الطبيعيّ وحتى الأقوياء من بينهم أمام تأثير الوسط الاجتماعي القدير الذي يعوقهم فإننا معرّضون دائما بطريقة أو بأخرى إلى خطر السقوط من جديد في هاوية السخافة الدينية. والأمثلة على هذه الارتدادات المخزية عديدة في المجتمع الحاضر.

لقد ذكرت السبب العمليّ والأساسيّ لقوّة تأثير المعتقدات الدينية على الطبقات الشعبيّة إلى اليوم. وهذه التصرّفات الروحانيّة تشير إلى زيغ في ذهن الانسان وإلى سخط كبير في قلبه، فهي احتجاج الكائن البشري الغريزي والانفعاليّ على كل ما هو ضيق وتفاهة وألم وعار في وجود بائس. وليس لهذا المرض سوى علاج هو الثورة الاشتراكية. وقد سعيت في

كتابات أخرى إلى توضيح الأسباب التي تصدّرت ولادة الأوهام الدينيّة في ضمير الإنسان وتطوّرها التاريخي، أما هنا فأريد أن أبحث في قضيّة وجود إله أو في أصل العالم والانسان الإلهي من وجهة نظر دورها الأخلاقي والاجتماعي، ولن أذكر سوى كلمات قليلة حول سبب هذا المعتقد النظري حتى أشرح فكرتي بطريقة أوضح.

إن كلّ الديانات بآلهتها وأنصاف آلهتها وأنبيائها ومسحائها وقدّيسيها خلقها خيال البشر السّاذج ولما يبلغوا تطوّرهم الأكمل ويمتلكوا كامل ملكاتهم الذهنية، وبالتالي فإن سماء الديانات ليست سوى سراب يجد فيه الإنسان المدفوع بالجهل والإيمان صورته الذاتية، لكنها صورة مكبّرة ومقلوبة أي مؤلّهة. وما تاريخ الأديان أي تاريخ منشأ الآلهة التي تعاقبت في الاعتقاد البشري وتاريخ عظمتها وسقوطها سوى تطوّر الذكاء والوعي الجماعيّين لدى البشر الذين كلما اكتشفوا أثناء مسيرتهم المتدرّجة تاريخيّا سواء في داخلهم أو في الطبيعة الخارجيّة، قوّة أو ميزة أو حتى عيبا إلا ونسبوا ذلك إلى آلهتهم بعد تهويله والإفراط في تضخيمه، كما يفعل الأطفال عادة، متصرّفين في ذلك حسب أوهامهم الدينيّة. ولهذا وبسبب تواضع أولئك المؤمنين والسُّذج وسخائهم الورع، اغتنت السماء بجثث الأرض. إلا أنه، وكنتيجة حتميّة، كلما ازدادت السماء ثراء، ازدادت الانسانية والأرض بؤسا. ولما استقرّ

الأمر للألوهيّة، أعلن بالطبع أنها السبب الكامن وراء كل الأشياء وعلّة وجـودها وسيّدها المطلق ومسيّرها الأوحد. ولم يعـد العـالم يعني شيئـا لأنها كل شيء. أما الإنسان خالقها الحقيقي، فبعد أن انتزعها بغير علم من العدم، ركع أمامها وعبدها وأعلن أنه مخلوقها وعَبْدُهَا.

وأفضل الديانات في هذا المضمار المسيحية لأنها تعرض وتجسّم كأحسن ما يكـون التجسيم طبيعـة كل المـذاهب الـدينيّة وجـوهـرها الحقيقي المتمثّلين في إفقار الانسانيّة واستعبادها وتدميرها لحساب الألوهيّة.

فبما أن الاله هو كل شيء فإن العالم الفعلي والانسان لا يمثّلان شيئا. وبما أن الاله هو الحقيقة والعدل والخير والجمال والقوة والحياة فإن الانسان هو الباطل والجور والشّر والبشاعة والضعف والموت. وبما أن الاله هو السيد فإن الانسان هو العبـد لأنـه عاجز عن بلوغ العدل والحقيقة والحياة الأبديّة بنفسـه ولا يستـطيع بلوغهـا إلا بواسطة وحي ديني. ولكن الحـديث عن الـوحي يفرض الحديث عن موحين ومسحاء وأنبياء وكهّـان ومشّرعـين ألهمهم الإله وما إن يعترف بهؤلاء ممثّلين للألـوهية على الأرض ومعلّمي الإنسـانيّة القُـدُسيين الـذين اصطفاهم الاله ليقودوها إلى درب الخلاص، حتى يمارسـوا بالضرورة حكما مُطلقا. وما على كلّ الناس إلا ان

يطيعوهم طاعة لا محدودة وعمياء إذ لا توجد مقابل الحكمة الرّبانيّة حكمة بشرية، ولا مكان لعدالة أرضيّة أبدا أمام عدالة الاله. ومثلما أنهم عبيد الاله، عليهم ان يكونوا كذلك عبيد الكنيسة وعبيد الدولة طالما كانت الدولة مكرّسة للكنيسة. هذا ما فهمته الدّيانة المسيحيّة أكثر من كل الديانات الأخرى الموجودة أو التي وجدت دون أن نستثني كذلك الديانات الشرقيّة القديمة التي لم تخصّ على كل حال سوى بعض الشعوب المتميّزة، بينما تدّعي المسيحيّة انها تشمل الإنسانية بأكملها، وهذا ما بشّرت به الكاثوليكيّة الرومانيّة وحدها من بين كلّ الملل المسيحيّة ونفّذته بمنطق صارم. ولهذا، فالمسيحيّة هي الديانة المطلقة وخاتمة الديانات. ولهذا، فالكنيسة البابويّة الرومانيّة هي وحدها الكنيسة المنطقيّة والشرعية والالهيّة.

ومهما كان رأي الميتافيزيقيين والمثاليينّ الدينيين والفلاسفة والسّاسة أو الشعراء إذن، فإن فكرة الاله تفرض استقالة العقل والعدالة البشريّين، وهي الرفض القاطع للحرّية الإنسانية، كما أنها تؤدي حتما إلى عبوديّة البشر نظريا وعمليّا أيضا.

وعلينا ألا نقوم بأدنى التزام لا نحو إله علم اللاّهوت ولا نحو إله الميتافيزيقيا إلا إذا كنا نروم عبوديّة البشر وهوانهم

مثلما يريد اليسوعيّون والموميُّون * والتَّقويُّون * أو الميتوديّون * الـبروتستـانتيون. فمن أراد أن يبـدأ بالاله في هذه الألِفْباء الروحانيّة يجب أن ينتهي بالاله حتما. ومن أراد أن يعبد الإله فعليه ودون التعلّق بأوهام صبيانيّة أن يتنازل بكلّ شجاعة عن حرّيته وإنسانيته، لأنه إذا وجد الإله فإن الانسان عبد، لكن الانسان باستطاعته بل عليه أن يكون حرّا فالإله غير موجود إذن.

وأنا أتحدّى أيا كان على الخروج من هذه الحلقة، وعلينا الآن أن نختار!

هل من الضروري أن نذكّـر كم وكيف تبلّد الـديانات أذهـان الشعوب وكم تفسدهم؟ إنها تقتل فيهم العقل أي وسيلة التحرّر البشري الأساسيّة وتخضعهم إلى الغباوة، شرط العبوديّة الضروريّ، فتشوّه أعمال الانسان وتجعل منها سمـة الخضوع ومنشأه، وتقتل مفهوم العدالة والشعور بها مرجّحة

- الموميّة: حركة دينية نشأت في سويسرا في القرن التاسع عشر ويمثّلها بروتستانتيون ذوو تقويّة صارمة ويناصرون الكنيسة الحرّة.
- التقوية: حركة دينية نشأت في ألمانيا في القرن السابع عشر وأكدت على دراسة الكتاب المقدّس والخبرة الدينية الشخصية.
- الميتوديّة: نظريّة كنيسة الميتوديّين أو تعاليمها وهي حركة قادها في أكسفورد عام 1729 تشارلز وجون ويزلي محاولين فيها إحياء كنيسة أنقلترا.

الكفة دائما إلى جانب اللّؤماء المنتصرين الذين تحوطهم الرّعاية الالهيّة كما تقتل الشهامة والكرامة البشريّين إذ لا تحمي غير الـزاحفـين والوضيعين وتخنق في قلوب الشعوب كل شعور بالأخوّة الإنسانية وتفعمهـا بالقسوة.

فكلّ الديانات قاسية وكلّها مؤسّسة على الدم لأنها تنبني كلّهـا على فكـرة القرابين والذبائح، أي على ذبح الانسانية الدائم لفائدة انتقام الألوهيّة الذي لا يرتوي. ويمثّل الانسان الضحيّة في هذا السر الدامي أما الكاهن أي الانسان المتميّز بفضـل العناية الالهية، فيمثل فيه الجلّاد الالهيّ، وهذا ما يفسّر لماذا نجد غالبا في أعماق قلوب كهنة كلّ الديانات بل في قلوب أفضلهم وأكثـرهم إنسـانيّة ووداعـة، وإن لم يكن في قلوبهم، ففي خيالاتهم وأذهانهم، ونعرف ما لهذه وتلك من تأثير رهيب في قلوب البشر، ولماذا نجد في مشاعر كل قسّ شيئا من القسوة والدّمويّة.

كلّ هذا يعرفه مشاهير مثاليّينا المعاصرين أكثر من غيرهم. إنهم علماء يعرفون تاريخهم عن ظهر قلب. وبما أنهم في الآن نفسه بشر أحياء ذوو نفوس مفعمة بحبّ صادق وعميق لخير الإنسانيّة، لعنوا تلك الأيام كلها وفضحوا جرائم الدّيانة كلها ببـلاغة منقطعة النظير دافعين بنقمة شديدة كل علاقة بإله الديانات الفعليّة وبكل ممثليها السّالفين والحاضرين على وجه الأرض.

والإله الذي يعبدون أو يتوهّمون أنهم يعبدون يتميّز عن آلهة التاريخ الحقيقيّة بكونه ليس إلها فعّالا بالمرّة ولا حازما بأي طريقة من الطرق، لا لاهوتيا ولا حتى ما ورائيّا. فهو ليس كائن روبسبيير Robespierre وجان جاك روسّو J.J.Rousseau الأسمى ولا إلـه سبينـوزا الحلوليّ ولا حتى إله هيقل الماثل والمفارق في الآن نفسه وشديد الالتباس. وهم يحذرون شديد الحذر من تحديده تحديدا معيّنا وصريحا لأنهم يدركون جيّدا أن كلّ تحديد يخضعه إلى مفعول النّقد المهدّم، لذلك لن يذكروا إن كان إلههم مشخّصا أم غير مشخّص وهل خلق العالم أم لم يخلق، ولن يتحدّثوا حتى عن عنايته الالهيّة لأن كل هذا قد يعرّضه للشبهات، ولذلك أيضا يكتفون بأن يقولوا : الإله، ولا شيء أكثر. فما هو إلههم إذن ؟ إنه ليس ولو فكرة. إنه مجرّد توق وتسامٍ.

إنـه اسم عامّ لكـل ما يبـدو عظيما وحسنا وجميلا ونبيلا وإنسانيّا فلماذا لا يقولون إذن : « الانسان » ؟ آه، لأن الملك غليوم بروسيا إنسان أيضا، ونابليون الثالث وكلّ مشابهيهما كذلك، وهذا ما يربكهم كثيرا، فالانسانية تقدّم لنا تجميعا لأعـظم وأجمـل ما في العـالم ولأحقر وأفظع ما فيه، فكيف يتخلّصون من هذا المأزق ؟ ولذلك سمّوا الواحد إلهيّا والآخر حيوانيّا وجعلوا الألـوهية والحيوانية بمثـابـة القطبين اللذين يضعان بينهما الإنسانيّة. وهم لا يريدون أو لا يستطيعون أن

يفهموا أن هذه المعاني الثلاثة لا تكوّن إلا واحدا وأن الفصل بينها يعني إتلافها.

كما أن المنطق لديهم شديد الوهن. ويبدو أنهم لا يعبؤون به. وهذا ما يفرّق بينهم وبين الميتافيزيقيين الحلوليّين والألمانيّين ويطبع أفكارهم بطابع مثاليّة عمليّة تستمدّ استيحاءاتها من التجارب لا من تحليل فكريّ صارم. وأكاد أقول إنها تستمدّها من انفعالات الحياة التاريخية والجماعيّة أو الفرديّة. وهذا ما يجعل لدعايتهم مظهر ثراء وقوّة وحيويّة، لكنه مظهر فقط لأن الحياة ذاتها تصير عقيمة إذا شُلّت بتناقض منطقيّ.

وذلك التناقض هو الآتي: إنهم يريدون الإله ويريدون الانسانيّة ويصرّون على الجمع بين معنيين إذا فُصِل بينهما، لا يستطيعان الالتقاء من جديد إلا لكي يُبيدَ أحدهما الآخر. ويقولون في نَفَسٍ واحد: الإله وحرية الإنسان، الإله وكرامة البشر وعدالتهم ومساواتهم وأخوتهم وازدهارهم دون أن يعبؤوا بالمنطق الحتميّ الذي إذا كان بمقتضاه الإله موجودا، فإنه يحكم على كلّ هذا بالانعدام، لأنه إذا كان الإله، فهو بالضرورةِ السيّد الأبدي والأسمى والمطلق، ولأنه إذا وجد هذا السيّد فإن الانسان عبد، وإذا ما كان عبدا، فليس ثمّة لا عدالة ولا مساواة ولا أخوّة ولا ازدهار ممكنة. وعبثا

يحاولون، مناقضين العقل السليم وكل تجارب التاريخ، أن يتصوّروا إلههم تحرّكه محبّة حنون للحريّة البشريّة لأن السيد مهما يفعل ومهما يرد أن يظهر تحرّريا، يبقى في نهاية الأمر سيّدا، ووجوده يحتّم عبوديّة كل ما يوجد تحته، فإن كان الإله موجودا، فليس لديه سوى وسيلة وحيدة يخدم بها حرّية البشر، وهي أن يتوارى عن الوجود.

وبما أنني مفتون بحرية البشر وغيور عليها، وبما أنني أعتبرها الشرط المطلق لكل ما نحبّ ونحترم في الانسانيّة، فإني أقلب جملة فولتير لأقول : « لو كان الاله موجودا، لوجب إلغاؤه » !

والمنطق الصّارم الذي يملي عليّ هذا الكلام بيّن إلى درجة تغني عن المضيّ في تحليل هذه البرهنة. ويبدو لي من المستحيل أن كبار المفكّرين الذين أوردت أسماءهم الشهيرة جدّا والمحترمة عن جدارة، لم يصطدموا هم أيضا ويدركوا التناقض الذي يسقطون فيه أثناء الحديث عن الاله وعن الحريّة الانسانية في نفس الوقت، ولكي يتجاوزوا كل هذا لابدّ أنهم اعتقدوا أن ذلك التناقض أو أن ذلك التجاوز غير المنطقي ضرورة فعليّة لخير الانسانيّة.

ورغم حديثهم عن الحريّة كما يتحدّثون عن شيء يحترمونه جدّا ويتعلّقون به، فقد يكونون فهموها على وجه مخالف لما

نتصـوّره، نحن المـاديّون والاشـتراكيّون الثوريّون. وهم لا يتحدثون عنها بالفعل إلا مقترنة بكلمة أخرى هي السلطة وهي كلمة أو أمر نكنّ له كرها مقيتا.

ما معنى السلطة؟ هل هي قوّة القـوانـين الحتميّة التي تتجسّد في تسلسل ظواهر العالم المادّي والعالم الاجتماعي وفي تعاقبها الحتميّ؟ فعلا، إن الثورة ضدّ هذه القوانين ليست فقط ممنـوعـة بل مستحيلة إذ نستـطيع أن نتجـاهلها أو أن نجهلها تماما، لكننا لا نستطيع أن نخالفها لأنها تمثّل أساس وجودنا بل شروطه كذلك وتحيط بنا وتخترقنا وتحدّد كل حركاتنا وكامل أفكارنا وأعمالنا، وحتى عندما نظنّ أننا نتمرّد عليها، فإننا لا نفعل شيئا سوى الامتثال لجبروتها.

أجل، نحن عبيد لتلك القوانين. وليس في هذه العبوديّة أي مذلّـة أو إنها ليست بالأحرى عبوديّة بالمرّة لأن العبوديّة تفترض وجود سيّد خارجيّ، أي مشرّع يوجد خارج ما يقع تحت أوامـره، بينـما هذه القـوانين لا توجد خارجنا بل هي ملازمـة لنا وتكوّن ذاتنا بأكملها، جسديا وذهنيا وأخلاقيّا، فنحن لا نحيا ولا نتنفّس ولا نتصرّف ولا نفكّر ولا نريد إلا بواسطتها، إننا لسنا أي شيء بغيرها ولا وجود لنا دونها. فمن أين تأتينا إذن القدرة على الثورة ضدّها وإرادة ذلك؟

ليس للإنسان إزاء القوانين الطبيعيّة سوى حرية واحدة ممكنة تتمثّل في الاعتراف بها والمزيد من تطبيقها وفقا لهدف التحرير أو الأنْسَنَةِ الجماعيّة أو الفردية الذي يسير نحو تحقيقه. وبمجرّد الاعتراف بهذه القوانين، تُمَارَسُ سلطة لا يجادل فيها أحد إلا من كان مثلا لاهوتيّا أو على الأقل ميتافيزيقيّا أو رجل قانون أو اقتصاديّا برجوازيا حتى يتمرّد على هذا القانون الذي نتحصّل بمقتضاه على أربعة عندما نقوم بعمليّة ضرب اثنين في اثنين، كما يجب أن نكون مؤمنين حتى نتوهّم أنّنا لن نحترق في النار ولن نغرق في الماء، إلا إذا ما التجأنا إلى خدعة مبنيّة كذلك على بعض القوانين الطبيعيّة الأخرى، بَيْدَ أن تلك التمرّدات أو بالأحرى تلك المحاولات أو تلك التهيّؤات المجنونة حول ثورة مستحيلة ما هي إلا استثناء نادر لأننا نستطيع أن نقول إن أغلبيّة الناس غالبا ما ينقادون في حياتهم اليوميّة وراء العقل السليم، أي وراء مجموع القوانين المعترف بها تقريبا اِعترافا مطلقا.

والمصيبة الكبرى أن كثيرا من القوانين الطبيعيّة قد أثبتها العلم لكنها بقيت مجهولة من قبل الطبقات الشعبيّة نتيجة لجهود تلك الحكومات الوصيّة التي ما وجدت إلا لخير الشعوب كما نعلم.

وهنالك عقبة أخرى تتمثل في أن أكثر القوانين الطبيعيّة المرتبطة بتطوّر المجتمع البشري، والمماثلة للقوانين التي تسيّر

العالم المادّي ضرورة وثباتا لم يثبّتها العلم نفسه ولم يُقرّها كما ينبغي .

فبمجرّد أن يتمّ إقرارها من قبل العلم أوّلا ، لكي تستقرّ انطلاقا منه في وعي كل الناس بواسطة نظام تعليميّ وتثقيفيّ شعبي واسع النّطاق ، فإن مشكلة الحرّية ستُفَضّ نهائيّا . وعلى السّلطات الأشدّ تعنّتا أن تُقرّ بأنّه لن تكون بعد ذلك حاجة إلى تنظيم ولا إلى إدارة ولا تشريع سياسيّ ، سواء كان منبع هذه الأمور الثلاثة من إرادة الملك أو من تصويت برلمان منتخب انتخابا عامّا . وحتى إن كانت مطابقة لنظام القوانين الطبيعيّة ـ وهذا ما لم يكن ولن يكون أبدا ـ فإنها مضرّة دائما ومناقضة لحريّة الطبقات الشعبيّة لأنها تفرض عليها نظاما من القوانين الخارجيّة أي الاستبدادية .

وتنحصر حرية الإنسان في الامتثال للقوانين الطبيعيّة لأنه هو الذي اعترف بها لا لأنها سلّطت عليه من قبل مشيئة خارجيّة إلهيّة أو بشريّة وجماعيّة أو فرديّة .

ولنفترض أن أكاديميّة من العلماء متركّبة من أشهر مُمثّلي العلم . تُكلّف بمهمّة تشريع القوانين وبتنظيم المجتمع ، وأنها لن تُملي عليه سوى قوانين مطابقة تماما لأحدث الاكتشافات العلميّة ، يدفعها في ذلك أصدق الحبّ

للحقيقة، فالنتيجة التي أعلنها هي أن ذلك التشريع وذلك التنظيم سيكونان بشاعة وحشية ويرجع هذا لسببين : أوّلهما هو ان العلم البشريّ ناقص دائما، وبمقارنة ما اكتشفه مع ما ينتظره أن يكتشف يمكن القول إنه مازال في المهد. لذلك فإن أيّ محاولة لإرغام حياة البشر العمليّة، أو الفردية على الامتثال الأعمى لآخر المعطيات العلميّة والاقتصار على ذلك، تحكم على المجتمع والأفراد بمقاساة الآلام المبّرحة فوق "سرير بُروكسْتُوس *" إلى حدّ التفكّك والاختناق. وتبقى الحياة أرحب من العلم إلى ما لا نهاية له.

أما السبب الثاني فهو الآتي : إن مجتمعا يخضع إلى تشريع صادر عن أكاديميّة علميّة، لا لأنه فهم بنفسه خاصيّاته المنطقيّة - وفي هذه الحالة يصير وجود الأكاديميّة عديم الجدوى، بل لأن ذلك التشريع الصّادر عن الأكاديميّة فُرض عليه باسم عِلْمٍ يقدّسه دون أن يفهمه، إن مجتمعا كهذا لن يكون بشريّا بل حيوانيّا، وسيكون نسخة ثانية من جمهوريّة البارغواي المسكينة التي انقادت كل ذلك الوقت لرهبانيّة

---

* بروكستوس Procuste أو بروكريستوس Procruste هو حسب الميثولوجيا الاغريقية قاطع طريق أسطوري كان يسلب المسافرين ويغذبهم فيمدّدهم فوق سرير ويقصّر أعضاءهم أو يمطّطها حسب مقاييس السرير. وقد سلّط عليه تيزيوس Thésee نفس العذاب.

اليسوعيّين. ولن يمضي وقت طويل حتى ينزل إلى الدّرك الأسفل من البلاهة.

وهنالك سبب ثالث يجعل وجود مثل تلك الحكومة أمرا مستحيلا. وهو أن أكاديميّة علميّة تتقلّدُ مثل تلك السيادة المطلقة، ستنتهي حتما وسريعا ـ رغم أنها تتركب من أعظم الرجال، إلى افساد نفسها بنفسها أخلاقيّا وفكريّا. وهذه قصّة كلّ الأكاديميّات اليوم رغم قلّة الامتيازات التي تحظى بها. وأكبر عالم عبقريّ ينحطّ وينام إذا ما أمسى أكاديميّا، أي عالما رسميّا وخاضعا لضريبة المهنة، فيفقد تلقائيّته وجسارته الثوريّة، وتلك الطاقة المضايقة والعنيفة التي تميّز طبيعة أكبر العباقرة، والمرصودة دوما لهدم العوالم الهرمة وإرساء قواعد العوالم الجديدة، ويُعوّض ما خسره من قوّة تفكير بمزيد من أدب المجاملة والرّزانة النفعيّة، أي أنه في كلمة واحدة يتعفّن.

إن خاصيّة كلّ امتياز وكل وضعيّة متميّزة هي قتل عقول البشر وقلوبهم. والإنسان المتمتّع بأي امتياز سياسيّ أو اقتصاديّ هو إنسان منحطّ فكريّا وأخلاقيا. وهذا قانون اجتماعي لا يحتمل أيّ استثناء، وينطبق على أمم بحالها كما ينطبق على الطبقات والجماعات والأفراد. إنه قانون المساواة، أي الشرط الأساسي لحريّة الإنسانيّة. وقد جعلت الهدف

الرئيسي من وضع هذا الكتاب تحليله وتبيين حقيقته في كل مظاهر حياة البشر.

إن هيئة علميّة يُعهد إليها بحكم المجتمع، ينتهي بها الأمر سريعا إلى التوقف عن الاهتمام بالعلم والانشغال بمسألة أخرى هي مسألة كلّ السلطات القائمة. وتتمثل في الدوام بجعل المجتمع الموضوع تحت رعايتها أبله من ذي قبل، وبالتالي أحوج إلى حكومتها وإدارتها.

وما هو صحيح بالنسبة إلى الأكاديميات العلميّة، صحيح كذلك بالنسبة إلى كلّ المجالس التأسيسيّة والتشريعيّة ولو كانت منبثقة عن الانتخاب العامّ، لأن الانتخاب قد يجدّد أعضاءها، لكنه لن يمنع من تكوّن مجموعات من السّاسة في بضع سنوات، وتفرّغهم إلى إدارة شؤون الحياة السياسيّة لبلاد ما، ينتهي بهم الأمر إلى تكوين ضرب من الأرستقراطيّة أو الأوليغارشيّة * السياسيّة، ولننظر مثلا إلى الولايات المتّحدة الأمريكية أو إلى سويسرا.

هكذا إذن ا لا تشريع ولا سلطة قطّ، لأن هذا لا ينفصل عن تلك في أي حال من الأحوال، ولأن الاثنين يرميان إلى استعباد المجتمع وتبليه المشّرعين أنفسهم.

---

* حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة نافذة همّها الاستغلال.

فهل يعني هذا أنني أرفض كل سلطة ؟ كم أنا بعيد عن هذه الفكرة لأنه كلما تعلق الأمر بالجزمة إلا ورجعت إلى سلطة الاسكافيين، وإذا ما تعلّق الأمر بمنزل أو قناة أو سكّة حديديّة، استشرت المهندس أو المعماري. وفيما يخصّ ذلك العلم المتخصّص، ألجأ إلى هذا العالم أو ذاك، إلا أني لا أترك لا الإسكافي ولا المهندس ولا العالم يفرضون عليّ، فأنا أقبلهم بكل حريّة وبكامل الاحترام الذي يستحقّه ذكاؤهم وسجاياهم ومعرفتهم مع الاحتفاظ دوما بحقّي الذي لا يُنازَعُ في النقد أو التفحّص، كما أني لا أكتفي باستشارة سلطة واحدة مختصّة، بل أستشير سلطات عدّة، فأقارن بين آرائها وأختار ما يبدو لي أصحّها. إلا أني لا أعترف أبدا بسلطة معصومة حتى ولو كان ذلك في المسائل المختصة. وبالتالي فإنني رغم الاحترام الذي أكنه للإنسانية، ولمصداقية هذا الشخص أو ذاك، لا أثق في أحد ثقة عمياء مُطلقة لأن مثل هذه الثقة تقضي على عقلي وحريتي، بل على نجاح مشاريعي كذلك، وتحوّلني في الحال عبدا غبيّا وآلة بين يدي مشيئة الغير ومصالحه.

وإن أنا خضعت لسلطة المتخصّصين، وعبّرت عن استعدادي لاتباع توضيحاتهم وحتى توجيهاتهم في نطاق معيّن وكلما بدا لي ذلك ضروريّا، فلأنّ تلك السلطة لم

يفـرضهـا علـيَّ أحد، لا بشر ولا إله، وإلا لرفضتها بكلّ اشمئزار، ولألقيت بنصائحهم وتوجيهاتهم وخدماتهم عرض الحـــائط ليقيني من أنهم سيجعلونني أدفـع من حريتي ومن كرامتي الانسانية ثمنا لِنُتَفِ الحقيقة المغلّفة بكثير من الأكاذيب التي سيقدمونها إلـيَّ.

إني أخضـع لسلطة المتخصّصـين، لأن عقـلي هو الذي يفـرضهـا علـيّ وذلك لإدراكي أنني لن أستطيع أن أعرف سوى جزء يسير من العلم البشريّ بكامل تفاصيله وتطوّراته الإيجابية، لأن أذكى العقول لا يكفي لمعرفة كل شيء، ومن هنا تتأكّد الحاجة إلى تقسيم العمل والاشتراك في القيام به في العلم كما في الصنـاعـة أنـا آخذ وأعطي، تلك هي الحياة البشريّة، فكلّ إنسان سلطة موجهة، وكل إنسان مُوَجَّهٌ بدوره، لذلك لا وجود لسلطة ثابتة وقارّة، بل هنالك تبادل مستمرّ لسلطة وامتثال متبادَلَين ومؤقتين واختياريّين خاصّة.

وهذا السّبب عَيْنُه هو الذي يمنعني من الإقرار بسلطة ثابتة وقارّة وشاملة، لأنه لا يوجد إنسان شموليّ أبدا، إنسان قادر على معـرفـة كل العلوم وكـل فروع الحياة الاجتـاعيّة بثراء تفاصيلها الذي لا يمكن من دونه أن يطبّق العلم في الحياة أبـدا. وحتّى إن تحققت تلك الشموليّة في شخص واحد، فأراد أن يتعـالى من خلالها، ليفرض علينا سلطته، لوجب

طرده من المجتمع لأن سلطته تؤول حتما إلى استعباد كل الآخرين وتبليههم. وأنا لا أعتقد أنه على المجتمع أن يسيء معاملة العباقرة كما فعل إلى حدّ الآن، لكني لا أعتقد كذلك أنه يجب عليه تسمينهم ومنحهم بعض الامتيازات أو الحقوق القاصرة عليهم خاصّة، وهذا لأسباب ثلاثة، أوّلها أنه غالبا ما قد يخلط بين العبقري والمشعوذ، وثانيها أنه بنظام الامتيازات ذاك، قد يحوّل العبقريّ الحقيقي إلى مشعوذ فيوهن عزيمته ويفسده، وآخرها أنه يهب نفسه مستبدّا.

والآن أُلخّص ما قلت. نحن نعترف إذن بسلطة العلم المطلقة لأنه ليس للعلم من غاية سوى تصوير ذهنيّ ومتعقّل ومنهجيّ في نطاق الممكن، للقوانين الذهنيّة الملازمة للحياة الماديّة والفكريّة والأخلاقية التي في العالم المادي كما في العالم الاجتماعي، إذ لا يمثّل هذان العالمان سوى عالم ماديّ واحد. أما ماعدا هذه السلطة المشروعة مادامت عقلانيّة ومطابقة للحرية الانسانيّة، فإننا نعتبرها كلّها سلطات كاذبة وتعسفيّة واستبداديّة ومضرّة.

إننا نعترف بسلطة العلم المطلقة لكننا نرفض الاعتراف بعصمة ممثّلي العلم وشموليتهم. ولنا في كنيستنا، وليسمح لي لوقت قصير باستعمال هذه الكلمة التي أمقتها على كل حال، لأن الكنيسة والدولة عدوّاي اللّدودان، قلت لنا في كنيستنا كما

في الكنيسة البروتستانتيّة رئيس أي مسيح خفيّ هو العلم، ومثل البروتستانتيين، بل أكثر منطقية منهم، لا نريد أن نحتمل فيها لا بابا ولا مجامع دينيّة ولا مجامع كَرَادِلَةٍ معصومين ولا أساقفة ولا حتى قساوسة. ويتميّز مسيْحنا عن المسيح البروتستانتيّ والمسيح المشخّص بكونه غير مشخّص. وبينما يظهر المسيح المسيحيّ المكتمل في ماض أبديّ بمظهر الكائن الكامل، يتنزّل اكتمال مسيحنا أي العلم، وكمالُه في المستقبل دائما، وهذا القول يساوي أنهما لن يتحقّقا نهائيّا، ولهذا فإن اعترافنا بسلطة مطلقة لعلم مطلق لا يورّط حريتنا أبدا.

وما أعنيه بالعلم المطلق هو العلم الشموليّ حقا، ذلك الذي يعكس على الوجه الأكمل الكون في اتّساعه وفي دقائقه اللاّمتناهية، أي نظام ترابط كل القوانين الطبيعية التي تتجلّى في تطوّر العوالم المستمر، ومن البديهي أن هذا العلم الذي يمثّل الهدف الأسمى لكلّ جهود الفكر البشريّ لن يتحقّق ولن يعرف أبدا اكتمالا مطلقا، وسيبقى لذلك مسيحنا غيَر مُكتمل إلى الأبد. وهذا من شأنه أن يُكفكف كثيرا من غرور ممثّليه المبرَّئين بيننا. ومقابل هذا الإله الابن الذي يطمعون في فرض سلطتهم الوقحة والمتحذلقة باسمه، نتّجه إلى االإله الآب الذي هو العالم الحقيقي والحياة الحقيقيّة، والذي ليس الابن سوى صورة له شديدة النقص، أما ممثّلوه المباشرون فنحن، نحن الكائنات الفعليّة والحيّة والعاملة والمناضلة والمحبّة والطامحة والمتمتّعة والمتألّمة.

إلا أننا رغم رفضنا سلطة رجال العلم المطلقة والشموليّة والمعصومة فإننا نقبل بطيبة خاطر سلطة ممثلي العلوم المختصّة لأنها جديرة بالاحترام لكنها نسبيّة وعابرة ومحدودة جدا. ونحن نرضى شاكرين باستشارتهم واحدا فواحدا، ونعترف بالجميل أمام ما يقدّمون لنا من إرشادات ثمينة، شرط أن يقبلوا توجيهاتنا حول الأمور وفي المناسبات التي نفوقهم فيها معرفة. وكم نودّ في الغالب أن نرى أناسا موهوبين. غزيري المعرفة وطويلي الخبرة ومتوقّدي الذّهن ورحاب الصدر خاصة، يؤثرون علينا تأثيرا طبيعيّا ومشروعا، قبلناه طوعا ولم يفرض علينا البتّة باسم سلطة رسميّة ما، سواء كانت سماويّة أو أرضيّة. فنحن نقبل كل السلطات الطبيعيّة وكل التأثيرات الفعليّة لا القانونيّة، لأن كل سلطة أو كلّ تأثير قانونيّ يفرض علينا بصفة رسميّة، سرعان ما يُمسي طغيانا وبهتانا، ويؤدي بنا حتما كما بيّنت بما فيه الكفاية حسبما أعتقد، إلى العبوديّة واللامعقوليّة السخيفة.

نحن نرفض باختصار كلّ تشريع وكلّ سلطة وكل تأثير متميّز ومبرّأ ورسميّ وقانونيّ وإن كان مصدره الانتخاب العامّ ليقيننا الصارم بأن هذه الأمور لن تخدم سوى مصلحة أقليّة مسيطرة ومستغلّة على حساب مصالح الأغلبيّة الساحقة المستعبدة.

فبهذا المعنى نحن فعلا لا سلطويّون.

أما المثاليّون المعاصرون فيفهمون السلطة على نحو مغاير تماما. ورغم تحرّرهم من كل الخرافات التقليدية في كل الديانات العمليّة الموجودة، يربطون مع ذلك فكرة السلطة هذه، بمعنى إلهيّ مطلق. وليست هذه السلطة سلطة حقيقيّة أوحت بها معجزة، ولا حقيقة أثبتتها الدّقّة العلميّة، إنما يبنونها على قليل من البرهنة شبه الفلسفيّة، وعلى كثير من إيمان ديني غامض، وعلى كثير من الإحساس الشعري المثالي والمجرّد. ومثلُ دينهم كمثل محاولة أخيرة لتأليه كل ما يكوّن الإنسانيّة لدى البشر.

وهذا عكس العمل الذي يجب أن ننجزه تماما، إذ أننا نعتقد أنه يجب استرداد الثروات التي اختلستها السماء وإرجاعها إلى الأرض في سبيل حرّية البشر وكرامتهم وازدهارهم، بينما يجهدون أنفسهم بالعكس لارتكاب سرقة أخيرة بطوليّة بالمعنى الديني إذ يودّون ردّ أكبر ما تحويه الانسانيّة وأجمله وأنبله إلى السماء، تلك السارقة الالهيّة. وقد آن الأوان لكي يعرّض أحرار التفكير بدورهم السماء للنهب بإلحاد تحليلهم العلميّ الجسور.

ويعتقد المثاليّون بلا ريب أنه يجب على الأفكار والأمور الانسانية أن تكتسي بإقرار إلهي حتى تحظى بسلطة أكبر بين البشر. ولا يظهر هذا الإقرار من خلال معجزة كما في

الـدّيانـات العمليّة، بل من خلال عظمـة الأفكار والأمور ذاتها، وقداستها. فكلّ ما هو عظيم وحسن ونبيل وعادل، إلهي. وكل إنسان يستلهم هذه الأمور وهذه الأفكار في هذا المعتقد الديني الجديد يصير قسّا ملهما من قبل الإله في الحال. والدليل على ذلك هو عظمة الأفكار التي يعبّر عنها أو الأمور التي ينجزها. إنها قُدسيّة إلى حدّ أنه لا يمكن أن يكون قد أوحى بها أحد إلا الإله.

تلك هي فلسفتهم في بضع كلمات. إنها فلسفة عواطف لا فلسفة أفكار حقيقيّة. وهي ضربٌ من التَّقَوِيَّةِ الميتافيزيقيّة. وقد تبدو وديعة ولكنها ليست كذلك، لأن المذهب المتناهية دقّتـه، والشديدة قسوته، والمنعدم إحساسه، المختبئ تحت غموض هذه الأشكال الذي لا يُدرك، يؤدّي إلى نفس النتائج المشؤومة التي تقود إليها كل الدّيانات العمليّة، أي إلى النفي المطلق للحرّية والكرامة البشريّتين.

وإذا ما أُعلن أن كلّ ما يوجد في الإنسانيّة من عظيم وعادل وحقيقي وحسن، إلهي، فإن ذلك يقتضي ضمنيّا، الاعتراف بأن الانسانيّة عاجزة عن انتاجه. وهذا يعني أيضا أنها إذا ما تُخُـلِّيَ عنها وتركت في حالها، فإن طبيعتها الخاصة هي البؤس والفسـاد والـرّداءة والبشـاعة، فها نحن نعود من جديد إلى جوهـر كل الـدّيانـات، أي إلى تحقير الانسانيّة أمام المجد

الإلهيّ الأكـبر ومـادام قد سُلِّم بدونيّة الانسـان وبقصـوره الأساسيّ عن الارتفاع بنفسه وخارج أي وحي إلهي، لبلوغ الأفكـار العادلة والصحيحة، فإنه يصبح من الضروريّ أن نسلّم كذلـك بكلّ النتائج اللاهوتيّة والسّياسية والاجتماعيّة للدّيانات العمليّة. وبما أن الإله أي الكائن الأكمل والأسنى ينتصب قُبـالَـة الانسـان، فإن الوسطاء الإلهيين والمختارين والملهمين من قِبَلِه يخرجون من الأرض لينيروا الجنس البشري ويقودوه ويحكموه باسمه.

أفـلا يمكن أن نفـترض أن كل الناس قد ألهمهم الإله كذلك؟ وبهذا تنعدم الحاجة بلا شكّ إلى وسطاء. لكن هذا الافـتراض مستحيل لأن الأحـداث تناقضه مناقضة كبيرة، ولأنـــه يقـتضي كذلـــك أن ننسب إلى الــوحي الإلهي كلّ السخافات والأخطاء التي تُرتكب وكلّ الفظاعات والحقارات والـدّنايا والحماقات التي تُقتَرَف في العالم البشري، لذلك لا يوجد سوى قليل من الناس في هذا العالم، مُلهمين من قِبل الإله، وهم رجال التاريخ الكبار والعباقرة الفاضلون كما يقول المواطن الشهير والنبي الإيطالي دجيوزيبّي ماتسيني Giuseppe Mazzini. فإلهامهم الإلهي وارتكازهم على القبول الاجماعيّ المعبّر عنه في الانتخابات الشعبيّة، أي اعتمادهم على الإلـــه

والشعب، يجعلهم مؤهّلين لتـدبـير سياسـة المجتمعـات البشريّة. *.

وصحيح ان الكنيسة لا تسمّى كنيسة، بل مدرسة في هذا النظام الجديد القائم بفضل الإله والمدعوم هذه المرة على الأقل شكليّا بإرادة الشعب المزعـومـة التي هي بمثـابـة الالتـزام الضّروري نحو الفكر العصري، كما جاء في مقدّمة مراسيم نابليون الثـالث الامبراطورية. ولن يجلس فوق مقاعد هذه الأطفـال فقط، بل كذلـك القاصر الأبدي والتلميذ الذي شُهد أنه عاجز إلى الأبد عن اجتياز امتحاناته والارتفاع إلى معارف معلّميه والاستغناء عن تأديبهـم، أي الشعبُ. ولا تُسمّى الدولة مُلُكيّة بل تدعى جمهوريّة، لكنها تبقى دولة أي وصـاية تضطلع بها أقليّة من الرجال الأكفّاء، ذوي عبقريّة ومـوهبة أو فضيلة بطريقة رسميّة ومنتظمة، فيراقبون سلوك ذلك الولد الكبير الفاسد والمزعج أي الشعب، ويسيّرونه. ويسمّى أساتـذة المدرسة وموظّفو الدولة جمهوريّين، لكنهم يبقون أوصياء على الشعب ورعاة له، فيبقى الشعب إلى الأبد

---

* لقـد سمعت في لندن منذ ستّة أو سبعة أعوام السيّد لويس بلان Louis Blanc يعـبّر عن نفس الفكـرة تقريبا فقد قال لي: «إن أفضل أشكـال الحكم هو الذي ما ينفكّ يستدعي إلى تسيير الأمور وإدارتها ذوي العبقريّة الفاضلة» (تعليق باكونين).

قطيعا كما كان دائما إلى اليوم، والويل للمجزُوزِين، لأنه كلما وجـد قطيــع وُجــد بالضرورة رعاة لجزّ صوفه ولأكله.

إن الشعب يمثّل في هذا النظام التلميذ واليتيم القاصر إلى الأبد، ويبقى رغم سيادته الوهميّة بمثابة الآلة التي تتحكّم فيها أفكار وإرادات وبالتالي مصالحُ ليست منه وإليه. وتوجد بين هذه الـوضعيّة وبـين ما نسمّيه نحن، الحـريّة الـوحيدة والحقيقيّة هوّة عميقة. لأنها ليست سوى الاضطهاد والعبوديّة القديمين في أشكال جديدة. وحيثما كانت عبوديّة وُجد البؤس والبلاهة وتَمديةُ المجتمع الحقيقيّة التي تشمل الطبقات ذوي الامتيازات كما تشمل الطبقات الشعبيّة.

وبتأليه الأمور الانسانيّة، يصل المثاليّون دائما إلى انتصار ماديّة فظّة ويرجع هذا لسبب بسيط، فذلك الإلهي، يتبخّر ويصعد إلى وطنه السّماويّ ولا يبقى بحقّ سوى الخشن على الأرض.

وقد سألت يوما ماتسيني ما هي الإجراءات التي يجب أن تُتَّخذ بعد إقامة جمهوريّته الاتّحاديّة المنتصرة نهائيّا؟ فأجابني «أن أوّل إجراء يتمثل في تأسيس مدارس للشعب» فأضفت سائلا: «وماذا يُدرَّسُ الشعب في هذه المدارس»؟ فأجاب: «واجبات الإنسان والتضحية والتفاني».

ولكن من أين سيُؤتَى بعدد كاف من المدرّسين لتعليم هذه الأمور التي ليس لأحد الحقّ في تدريسها أو القدرة على ذلك ما لم يعمل بما ينصح به الآخرين. أليس عدد الذين يجدون لذّة كبرى في التضحية والتفاني ضئيلا جدّا ؟ وأولئك الذين يضحّون بأنفسهم في سبيل فكرة عظيمة يمتثلون لرغبة سامية. وأثناء استجابتهم لهذه الرغبة الشخصية التي لولاها لفقدت الحياة كل معانيها في أعينهم، لا يفكرون أبدا في تحويل عملهم إلى عقيدة، بينما الذين يجعلون من ذلك عقيدة، ينسون في أغلب الأحيان أن يحوّلوه إلى فعل. وهذا يرجع لسبب بسيط يتمثّل في أن العقيدة تقتل الحياة وتقتل تلقائيّة العمل الحيّة. وأمثال ماتسيني الذين يمثّل المبدأ والعمل في ذواتهم وحدة رائعة، ليسوا إلا استثناءات تاريخية نادرة جدّا. وقد وجد في المسيحية أيضا رجال عظام وقدّيسون حقّقوا بالفعل، أو حاولوا على الأقل أن يحقّقوا بكلّ شغف، ما كانوا يقولون، وامتلأت قلوبهم المفعمة بالمحبّة باحتقار لمَتَع الدنيا وخيراتها، لكن أغلبيّة رجال الكنيسة الكاثوليك والبروتستانتيّين الساحقة الذين بشّروا من خلال مهنتهم، ومازالوا يبشّرون بمبادئ طهارة النفس والتعفّف والزهد، يكذّبون مبادئهم بسلوكهم. وليس من باب الصدفة أن ظهرت هذه الأمثال : « أفسق من قسّ، وأشره من قسّ، وأطمع من قسّ، وألهف وأنهم وأبخل من قسّ . . . » بل

هي نتيجة لتجربة قرون طويلة. وقد لوحظ اذن أن معلّمي الفضائل المسيحيّة الذين كرّستهم الكنيسة لذلك، أي الكهنة، قد فعلت الأغلبيّة الساحقة من بينهم عكس ما كانوا به يبشّرون. وتلك الأغلبية بالذات والإجماع على ذلك الأمر يدلّان على أنه يجب ألا نردّ المسؤولية إلى الأشخاص بالذات، بل إلى وضعيّة هؤلاء الاجتماعية، نعم إلى تلك الوضعيّة المستحيلة والمتناقضة في حدّ ذاتها.

ففي وضعيّة الكاهن المسيحيّ تناقض مزدوج، أوّله مناقضة مبدأ حرمان الذّات والزّهد لميولات الطبيعة البشريّة وحاجياتها العمليّة، فقد تكبت هذه الميولات والحاجيات بصفة مستمرّة وتُخْمَدُ، بل يمكن أن تُقهَر تماما في آخر الأمر بتأثير مستمرّ لبعض الانفعالات الذهنيّة والأخلاقية، في بعض الحالات الفرديّة النادرة جدا. وقد تُنسى أو تُهملُ من قِبل أعداد غفيرة من الناس في بعض حالات الحماس الجماعي، إلا أنها ملازمة للطبيعة البشريّة ملازمة شديدة وعميقة إلى حدّ أنها تسترجع دوما حقوقها في نهاية الأمر. وإذا لم تُشْبَعْ بطريقة سويّة وعاديّة، فإنها تعوَّض في النهاية بتعويضات مؤذية وفظيعة. فهذا قانون طبيعيّ وبالتالي حتميّ وقاهر يخضع حتما لتأثيره المهلك كلّ الكهّان المسيحيين وخاصّة رجال الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة من بينهم.

كما يوجـد تناقض آخر يشترك فيه هؤلاء وأولئك، يرتبط بلقب السيد ووضعيّته. فسيّد يحكم ويجور ويستغلّ، شخص منطقيّ جدّا وطبيعيّ إلى أبعد الحدود. أما سيّد يضحّي بنفسه في سبيل من يخضعـون له بمـوجب امتيازه الإلهي والبشريّ فشخص متنـاقض كلّيا ومستحيل أن يكون، بل إنه جوهر النفاق عينه، ذلك الذي يجسّمه البابّا خير تجسيم، فيزعم أنه خادم خدم الإله الورعين، ودليلا على ذلك، يقتدي بالمسيح ويغسل أرجل متسوّلي روما الاثني عشر، مرّة كل عام. ويعلن في الوقت ذاته، أنه ممثل الإله الأعظم، وسيّد العالم المطلق المعصـوم. وهـل يجب أن أذكّـر مرّة أخـرى بأن كهّان كل الكنـائس يذبحـون دوما القطعان التي عُهد إليهم برعايتها عوض أن يضحّـوا بأنفسهم في سبيلهـا، يستغلّونها ويبقون عليها في وضعيّة القطيع تلك، إشباعا لأهوائهم الشخصيّة من ناحية، وخدمة لجبروت الكنيسة من ناحية أخرى. وبما أن نفس الأوضاع ونفس الأسباب تولّد دوما نفس النتائج، فكذلك قل في شأن مدرّسي المدرسة العصريّة الـمُـلهَمين من قبـل الإلـه والمـبرّئـين من قبـل الدولة، الذين يمسون حتما المبشرين بمبـدأ التضحية بالشعب من أجـل قوّة الـدولـة ولحسـاب الطبقات ذات الامتيازات. ويفعل البعض ذلك دون علم بينما يقوم به البعض الآخر وهم على أتمّ العلم بالوقائع.

فهل يعني هذا أنه يجب حذف كل تدريس من المجتمع وإلغاء كل المدارس ؟

لا وألف لا ! بل ينبغي نشر التعليم بين الطبقات الشعبيّة بصفة مكثّفة وتحويل كل الكنائس أي كل تلك المعابد المسخّرة لتمجيد الإله واستعباد الانسان إلى مدارس للتحرّر البشري. ولكن لنتّفق منذ البدء ! فالمدارس التي نتحدّث عنها والموجودة في مجتمع سويّ قائم على العدالة واحترام الحريّة الانسانيّة، تقتصر على تعليم الأطفال لا الكبار. ولكي تصير بحقّ مدارس تحرّر لا عبوديّة، يجب أن نُقصي منها قبل كل شيء تلك الفكرة الوهميّة التي تعني الإله المستعبد الأبديّ والمطلق. كما ينبغي أن نبني تربية الأطفال وتعليمهم على تطوّر العقل العلمي لا على العقيدة، وعلى تطوّر الكرامة والحريّة الشخصيتين لا على الورع والخضوع، على تقديس الحقيقة والعدالة رغم كل شيء، وعلى الاحترام الإنسانيّ الذي يجب أن يعوّض في كل المجالات التقديس الإلهي. ويمثّل مفهوم السلطة في تربية الأطفال نقطة الانطلاق الطبيعيّة، فهي مشروعة وضروريّة إذا ما طُبقت عليهم في سنّ الحداثة، قبل أن يتطوّر ذكاؤهم نهائيّا، وبما أن تطوّر كل شيء، وتطوَّر التربية بالتالي، يقتضي رفضا متتابعا لنقطة الانطلاق، فإنه على هذا المفهوم أن يتقلّص كلما تقدمت تربية الأطفال وتعليمهم ليحلّ محلّه التحرّر التصاعديّ.

وما كل تربية في نهاية الأمر سوى قتل للسلطة تدريجي، لفائدة الحرية، لأن الغاية النهائيّة من التربية هي تكوين أناس أحرار، نفوسهم مفعمة باحترام حرّية الغير وحبّها. فإن كانت المدرسة تحتضن أطفالا صغارا مازالوا يتلعثمون أثناء نطق بضع كلمات، فينبغي أن يكون اليوم الأوّل في حياتهم المدرسيّة يوم سلطة شديدة وانعدام يكاد يكون كلّيا للحرّية، أما آخر يوم فيها، فيجب أن يكون يوم حرّية كبرى وإلغاء مطلق لكامل آثار مفهوم السلطة الحيوانيّة أو الإلهية.

وإذا ما طُبّق مفهوم السلطة على أناس بلغوا سنّ الرشد أو تجاوزوه، ينقلب وحشيّة ونفيا فظيعا للإنسانيّة ومصدر عبوديّة وانحراف ذهنيّ وأخلاقي. ولكن الحكومات الأبويّة تركت الطبقات الشعبيّة تركد في جهالة مطبقة إلى درجة لا تفرض إنشاء مدارس لأبناء الشعب فحسب، بل للشعب كذلك. ويجب أن نحذف في هذه المدارس أدنى تطبيق لمفهوم السلطة وأدنى تعبير عنها حتى تتحوّل إلى أكاديميّات شعبيّة لا مجال للحديث فيها عن تلاميذ ومدرّسين، يرتادها الشعب بكلّ حرية ليتابع فيها، إذا رأى ذلك ضروريّا، تعليما حرّا. ويمكنه بفضل تجاربه الغزيرة ان يعلّم بدوره أمورا كثيرة للأساتذة الذين يمكنونه من المعارف التي يجهلها. وبهذا يكون التعليم مشتركا ويجسّد الأخوة الفكريّة بين الشباب المثقف والشعب.

أما المدرسة الحقيقيّة للشعب ولكل إنسان ناضج، فهي الحياة. تلك التي لا نجد سلطة قديرة وطبيعيّة وعقلية في الآن نفسه سواها، والتي لا نحترم غيرها. إنها سلطة الرأي العام والجماعي لمجتمع قائم على الاحترام المتبادل بين كل أفراده. نعم! ليست هذه السلطة دينيّة بل بشريّة، إلا أننا نخضع لها بطيبة خاطر، وكلّنا يقين بأنها تحرّر البشر عوض أن تكبّلهم. وتأكّدوا أنها أقوى من كل سلطاتكم الربانيّة واللاهوتيّة والماورائية والسياسيّة والقضائيّة التي أنشأتها الكنيسة والدولة، وأقدر من كل قوانينكم الجنائية ومن كل سجّانيكم وجلّاديكم.

وقد أصبحت قوّة الرأي العامّ والمشترك الآن أمرا ذا شأن، ولا يجرؤ حتى أكثر الناس نزوعا إلى اقتراف الجرائم على تحدّيها ومواجهتها علانية إلا نادرا. وقد يحاولون مغالطتها لكنهم يحذرون مصادمتها إلا إذا شعروا بدعم من بعض الأقليّات، لأنه لن يستطيع أي إنسان مهما حسب نفسه قويّا، أن يتحمّل إجماع المجتمع على احتقاره، وأن يعيش دون أن يحسّ نفسه مدعوما برضاء بعض أطراف ذلك المجتمع وتقديرها إلا من كان مدفوعا باقتناع راسخ وصادق حتى يجد الشجاعة التي تمكّنه من التعبير عن رأي يخالف الجميع، والسير في طريق يقابلهم. ولن تتوفّر هذه الشجاعة لشخص أنانيّ ومنحلّ وحقير أبدا.

فلا شيء يدلّ أكثر من هذا على ما يفعله التضامن الطبيعي والحتمي الذي يربط بين البشر. وبإمكان كل واحد منّا أن يلاحظ يوميّا أثر هذا القانون في نفسه وفي نفوس من يعرفهم. ولكن لنا أن نتساءل لماذا لم تكف هذه القوّة الاجتماعية لتهذيب أخلاق البشر وجعلهم أكثر إنسانيّة مادامت موجودة ؟ ونجيب بكل بساطة أن تلك القوة بالذات لم تقع أنْسَنَتُهَا إلى حدّ الآن، وذلك لأن الحياة الاجتماعية التي ما هي إلا صورتها الصادقة، مؤسّسة كما نعلم على التقديس الالهي لا على احترام الانسان، أي على السلطة لا على الحرية، وعلى الامتيازات لا على المساواة، وعلى الاستغلال لا على تآخي البشر، وعلى الجور والبهتان لا على العدالة والحق، لذلك كان دوما لأعمالها الفعلية المناقضة دوما للنظريات الانسانيّة التي تبشّر بها، تأثيرات ضارّة ومفسدة. فهي لا تقهر الرذائل والجرائم بل تخلقها، وسلطتها بالتالي دينيّة لا إنسانية وتأثيرها مؤذ ومضرّ. وإن أردتم أن تجعلوها نافعة وإنسانية، ثوروا ثورة اشتراكية حتى تصير كل الحاجيات متضامنة بحق، وتتطابق المصالح الماديّة والاجتماعية لكل الأفراد مع واجباتهم الانسانية. وتوجد وسيلة وحيدة لتحقيق هذاالأمر، فدمّروا مؤسسات اللاّمساواة كلها وأنشئوا العدالة الاقتصادية والاجتماعية لكل الناس، فتقوم على هذا الأساس حرّية الجميع وأخلاقيتهم وإنسانيتهم المتضامنة.

نعم ! إن المثاليّة في النظرية تولّد حتما ماديّة عنيفة إلى أبعد الحدود في التطبيق لا بالنسبة إلى الذين يبشرون بها عن حسن نية، لأن النتيجة الطبيعية التي يقف عليها هؤلاء هي عقم كل جهودهم، بل بالنسبة إلى الذين يجهدون أنفسهم لتحقيق تعاليمهم في الحياة وللمجتمع بأكمله حتى يمتثل للمبادئ المثاليّة.

ولإقامة الدليل على هذه القاعدة العامة - التي قد تبدو غريبة لأول وهلة ثم تفسّر بصفة طبيعية عند مزيد التفكير فيها - فإن الحجج التاريخيّة كثيرة. ولنقارن حضارتي العالم القديم الأخيرتين، أي الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانيّة. فأيّهما أكثر ماديّة وطبيعيّة عند انطلاقتها، وأكثرها مثاليّة على نحو إنسانيّ في نتائجها ؟ إنها الحضارة الإغريقية بلا ريب. وأيهما الأكثر مثاليّة على نحو تجريدي في انطلاقتها، أي تلك التي ضحّت بحرية الإنسان الماديّة في سبيل حريّة المواطن المثاليّة الممثلة في التجريد القانوني والقضائي، وبالتطوّر الطبيعي للمجتمع البشريّ لفائدة تجريد الدولة ؟ وأيهما التي أمست مع ذلك. أشدّ فظاظة في نتائجها ؟ إنها الحضارة الرومانيّة دون شكّ، وصحيح أن حضارة الإغريق كانت بالخصوص قوميّة. واعتمدت الرّق أساسا لها. مَثَلُها في ذلك كمثل سائر الحضارات القديمة، ومن بينها حضارة الرومان. ولكن رغم هذين الخطأين التاريخيّين الكبيرين، فقد كانت أوّل من تصوّر فكرة الإنسانيّة وحقّقها، فنبّلت حياة البشر وأمثَلَتْها بحق،

وحوّلت القطعان البشريّة إلى تجمعات حرّة لناس أحرار، وابتكرت بفضل الحريّة، العلوم والفنون والشعر والفلسفة الخالدة، وأوّل مبادئ احترام الانسان، وأنشأت بفضل الحريّة السياسية والاجتماعية التفكير الحرّ.

وقد كان كافيا في نهاية القرون الوسطى، أن يحمل بعض الإغريق المهاجرين شيئا من تلك الكتب الخالدة إلى إيطاليا لكي تنبعث الحياة والحريّة والتفكير والإنسانية المدفونة في زنزانة الكاثوليكيّة المظلمة. إن الحضارة الاغريقيّة تعني التحرّر البشري أما الحضارة الرومانيّة فهي الغزو العسكري بكل نتائجه العنيفة وخلاصتها هي جبروت القياصرة وإذلال الأمم والبشر.

وما الذي يقتل إلى اليوم الحريّة والانسانيّة ويسحقهما بعنف وماديّة في كل البلدان الأروبية ؟ إنه انتصار المفهوم القيصري الرومانيّ.

ولنقارن الآن بين حضارتين عصريّتين أي الحضارة الايطاليّة والحضارة الألمانيّة. فالأولى بلا ريب، تمثّل في طابعها العام الماديّة، أما الثانية فتمثل بالعكس أكثر ما في المثاليّة من تجريد وصفاء وتعالٍ *. فما هي النتائج العملية لهذه وتلك ؟

---

* كينونة فوق الوجود المادّي ومفارقة له.

لقــد قدّمت إيطاليا خدمــات جليلة في سبيل التحـرّر الإنساني إذ كانت أول من بعث مفهوم الحريّة في أروبا وطبّقه على أوسع نطاق، كما ردّت للانسانية القاب نبلها المتمثلة في الصناعة والتجارة والشعر والفنون والعلوم العقلانية والتفكير الحرّ. إلا أنها تبدو اليوم خائرة القوى بالقياس إلى ما كانت عليه نتيجة لانسحاقها منذ ذلك الوقت تحت ثلاثة قرون من الاستبداد الامبراطوري والبابوي، وتخبّطها في الأوحال بسبب برجـوازيتـه الحـاكمة. وما أبعد الفرق رغم ذلك بينها وبين ألمـانيا. ففي إيطاليا، يستـطيع الانسان، رغم هذا التأخر الـذي نرجـو أن يكـون عابـرا، أن يحيا ويتنفّس الانسانيّة والحـريّة، يحيط به شعب يبـدو أنـه ولـد لكي يكون حرّا. ويمكن حتى لإيطاليا البرجوازيّة ان تزهو بكلّ اعتزاز برجال مثل ماتسيني Mazzini وقاريبالدي Garibaldi . أما في ألمانيا، فلا يتنفّس المرء ســوى هــواء مُثقــل بعبوديّة سياسيّة واجتماعية كبرى، معلَّلَةٍ فلسفيّا ومُسَلم بها من قبل شعب كبير خضع لها باستعــداد وانقياد مُتروّين، وأبــطالهـا ينـاقضـون ماتسيني وقــاريبـالـدي تمامـا، وهم اليوم غليوم الأول Guillaume 1er الممثّـل الـوحشيّ والسّـاذج للالـه الـبروتستـانتيّ. وكذلك السّيدان بيسمارك Bismarck ومـولتكـه Moltke ، والجنـرلان مانتـوفل Manteuffel وفـيردير Werder . وقـد كانت ألمانيا منذ نشأتها، غازية ومحتلّة ومستعـدّة دومـا لبسط عبوديّتها الاختياريّة على

الشعوب المجاورة. وأصبحت منذ تحوّلها إلى قوّة اتحاديّة، خطرا على الحرية في أروبا بأكملها، وصار اسم ألمانيا مرادفا للعبوديّة الفظّة والمنتصرة.

ولكي نبيّن كيف تتحوّل المثاليّة النظريّة دوما وحتما إلى ماديّة عملية، ليس لنا إلا أن نذكر مثال كل الكنائس المسيحيّة، وبالطبع مثال الكنيسة البابويّة والرومانيّة قبل كل شيء. فهل يوجد بالمعنى المثالّي أسمى وأنزه وأكثر ترفّعا عن منافع هذا العالم من مذهب المسيح الذي تبشّر به هذه الكنيسة ؟ وهل ثمة ما هو أشد ماديّة وقسوة من الممارسات المستمرة التي تقوم بها تلك الكنيسة بالذات ؟ وما هي الغاية الأساسية التي كانت ولاتزال وراء كل خصوماتها مع ملوك أروبا ؟ إنها الخيرات الدنيويّة ومداخيل الكنيسة أولا، والسلطة الزمنيّة وامتيازات الكنيسة الدنيوية بعد ذلك.

ولكن يجب أن ننصف الكنيسة لأنها كانت أول من اكتشف في التاريخ الحديث هذه الحقيقة الأكيدة التي ليس لها علاقة كبيرة بالمسيحيّة، والمتمثّلة في أن الثورة والسيطرة واستغلال الطبقات الشعبيّة الاقتصادي واضطهادها السياسي، هي الدعائم المتلازمة لسيادة المثاليّة الالهيّة على الأرض. فالثروة توطّد السيطرة وتضخّمها، والسيطرة تكتشف دوما وتولّد مصادر جديدة للثروة، وتضمن كلتاهما

نجاح مساعي مجامع التبشير المسيحيّة أكثر من استشهاد الرسل وإيمانهم وأكثر من نعمة الاله أيضا. وهذه حقيقة تاريخيّة لا تنكرها الكنيسة كذلك أو بالأحرى الكنائس، وأتحدّث هنا طبعا عن كنائس انقلترا وأمريكا وسويسرا المستقلّة، لا عن كنائس ألمانيا المستعبدة التي لا تملك أمرها بيدها وتنعدم فيها روح المبادرة، بل تطبق أوامر أسيادها الزمنيّين الذين هم في الآن نفسه قادتُها الرُّوحِيُّونَ. ونعلم أن التبشير البروتستانتي الانقليزيّ والأمريكي خاصّة يلتصق التصاقا وثيقا بالتبشير بمصالح هاتين الدولتين العظميين المادّيّة والاقتصاديّة. ونعلم أيضا أن الغاية من وراء ذلك التبشير ليست إثراء البلدان التي يدخلها رفقة كلمة الإله، وازدهارها الماديّ، بل استغلال تلك البلدان بقصد إثراء بعض طبقات فاحشة الاستغلال والقرصنة في بلدانها، وفي سبيل ازدهارها الماديّ.

وخلاصة القول أنه ليس من العسير البرهنة على أن الكنيسة بل كل الكنائس المسيحيّة وغير المسيحيّة، لم تنس إلى جانب تبشيرها الروحي، ولتوطيد نجاحه، أن تنتظم في شكل مؤسّسات كبيرة مهمّتها استغلال الطبقات الشعبيّة الاقتصادي، وذلك بحماية ألوهيّة ما، وبمباركتها المباشرة والخاصة، وعلى أن كل الحكومات التي لم تكن كما نعلم، في الأصل، بكل مؤسساتها السياسيّة والقانونيّة، وبكلّ طبقاتها

المسيطرة والمتمتعة بالامتيازات، سوى تفرّعات زمنيّة لمختلف تلك الكنائس، اشتركت معها في نفس المهمّة المتمثّلة في ذلك الاستغلال عينه، لحساب الاقليّات اللائكيّة المعترف بها من قبل الكنيسة بطريقة غير مباشرة، وعلى أن مفعول الإله عامّة والمثاليّات الإلهية في الأرض، يؤدي دائما وحيث كان، إلى تأسيس ماديّة الأقليّة المزدهرة على مثاليّة الطبقات الشعبيّة المتعصّبة ودائمة الجوع.

وما نراه اليوم دليل آخر على ذلك ! فمن هم حماة المثاليّة الأشد تحمّسا اليوم، باستثناء ذوي القلوب الكبيرة والأذهان التائهة الذين أسلفت ذكرهم ؟ لقد كانوا في فرنسا نابليون الثالث وزوجته السيدة أوجيني Eugénie وكل وزرائهما ورجال حاشيتهما وماريشالاتها السّابقين من أمثال روويرRouher وبازين Bazaine وكذلك فلوري Fleury وبياتري Piétri ، وهم أيضا رجال ونساء الأوساط الامبراطوريّة الرسميّة التي أمثلت فرنسا أمثلة جيّدة وأنقذتها، وهم صحافيّوها وعلماؤها أمثال كاسّانياك Cassagnac وجيراردان Girardin وديفارنوا Duvernois وفويّو Veuillot ولوفاريّي Leverrier ودوماس Dumas.. وهم أخيرا الفيالق القائمة من اليسوعيين واليسوعيّات الذين لا يحصون، وكل نبلاء فرنسا وبرجوازيّيها الكبار والمتوسّطين. وهم المتمذهبون اللّيبيراليون والليبيراليّون الذين بلا مذهب من أمثال قيزو Guizot وتيارس Thiers وجولّس فافر Jules Favre

وبــالّــوتــان Pelletan وجــولّس سيمـون Jules Simon حُماةِ الاستغلال البرجوازيّ المستبسلين. أما في بروسيا أو ألمانيا فهم الملك غليوم الأول ممثّل الإله الحالي في الأرض وكلّ جنرلاته وضبّاطه وجيشه الذي قهر أخيرا فرنسا بالطريقة المثاليّة التي نعرفها، بفضل قوّة إيمانه الدّيني، وأما في روسيا فهم القيصر وكـامل حاشيته مثل مورافياف Mouravieff وبارق Berg وكلّ ذبّـاحي بولونيا وهُداتها الأتقياء. وخلاصة القول أن المثاليّة الدينيّة أو الفلسفية، وما الواحدة سوى تفسير للأخرى، ترفع اليوم كراية للقوّة الماديّة والدمويّة الشّرسة، وللاستغلال المادّي الـوقح، بينما راية الماديّة النظريّة، وراية العدالة الاقتصادية والمساواة الاجتماعيّة، الحمراء، ترفعها المثاليّة العمليّة، أي مثـاليّة الطبقات المسحوقة والجائعة، الرامية إلى تحقيق أكبر حريّة، والحقوق الانسانيّة لكل شخص في نطاق أخوّة سكّان الأرض كلّهم.

فمن هم المثاليّون الحقيقيّون، مثاليّو الحياة لا التجريد، ومثاليّو الأرض لا السماء، ومن هم الماديّون ؟

من البديهيّ أن شرط المثاليّة النظريّة أو الإلهية الأساسيّة هو قتل المنطق، والعقل البشري، وإقصاء العلم. ونلاحظ من ناحية أخـرى أن الـدفـاع عن المذاهب المثاليّة يجرّ حتما إلى الانضـمام إلى صفـوف مضـطهـدي الـطبقـات الشعبيّة ومستغلّيها. وهذان سببان كبيران يبدوان كافيينْ لإبعاد كل

ذي فكر فذّ وقلب كبير عن المثاليّة، فكيف إصرار كبار مثاليّينا المعـــاصرين على البقـــاء إذن في صفّ ممثّـلي مذهب مُدَان ومفضوح، مع أن الفكر الفذّ والقلب الكبير والنيّة الحسنة لا تنقصهم، ومع أنهم سخّروا وجودهم بأكمله لخدمة الانسانيّة ؟

فلابدّ أن يكونوا مدفوعين لذلك بسبب قويّ. ولا يمكن أن يكـون هذا السبب المنـطق ولا العلم، لأنهما قد أصدرا حكمهما على المذهب المثالي، كما لا يمكن أن تكون المصالح الفرديّة لأن أولئك الرجال فوق كل مصلحة فرديّة. فلابدّ أن يكـون إذن سببـا أخلاقيًا قويًا، ولكن ما هو؟ يعتقد هؤلاء الـرجـال الكبـار بلا ريب أن المبـادئ أو المعتقدات المثاليّة ضروريّة بالنسبـة إلى كرامة الانسان وعظمته الأخلاقية وأن النظريّات الماديّة تهينه إلى مرتبة الحيوان.

ولكن أليس العكس هو الصحيح ؟

لقد قلت إن كل تطوّر يحتّم رفض نقطة الانطلاق. وبما أن الأساس ونقطة الانطلاق ماديّة، حسب المدرسة الماديّة، فلابدّ أن يكون رفضها مثاليًا، بانطلاقها من العالم الفعلي أو ما يسمّى تجريديًا بالمادّة، تصل منطقيًا إلى الأمثلة الفعلية، أي إلى أنسنة المجتمع وتحرّره الكامل. بينما أساس المدرسة المثـالية ونقطة انطلاقها مثاليّان، لذلك تصل بالضرورة إلى

تمدية المجتمع وإرساء استبداد عنيف واستغلال جائر ودنيء في شكل كنيسة ودولة، فتطوّر الانسان التاريخي حسب المدرسة الماديّة صعود تدريجيّ بينما لا يمكن أن يكون في عرف المثاليين سوى سقوط مستمرّ.

ومهما حاولنا أن ندرس من قضايا انسانيّة، فإننا نقف على هذا التقابل الأساسي بين المدرستين. فالماديّة تنطلق كما بيّنت، من الحيوانية البشريّة لتكوّن الانسانية. وتنطلق المثاليّة من الألوهيّة لتكون العبوديّة ولتحكم على الطبقات الشعبية بحيوانية لا مخرج منها. وبينما تنفي الماديّة القدريّة وتفضي إلى تحقيق الحريّة، تعلن المثاليّة القدَريّة باسم الكرامة البشريّة وتقيم السلطة على أنقاض كل الحريّات. وترفض الماديّة مفهوم السلطة لأنها تعتبره، وهي مُحقّة في ذلك، لازمة الحيوانيّة، ولأن انتصار الانسانيّة الذي يمثّل حسبها، هدف التاريخ ومعناه الأساسيّين، لن يتحقّق الا بواسطة الحريّة. وخلاصة القول اننا نجد دائما المثاليين في حالة تلبّس بماديّة عمليّة في كل الأمور بينما نجد الماديّين يتابعون أكثر النزعات والأفكار مثاليّة ويحقّقونها.

وقد قلت إن التاريخ لا يمكن أن يكون في نظريّة المثاليّين سوى سقوط مستمرّ، فهم يبدؤون بسقوط مريع لا ينهضون بعده أبدا، وهو السقطة الإلهيّة المميتة من مناطق الفكرة النقيّة

السامية والمطلقة إلى المادة. ولنلاحظ في أي مادّة ا إنها ليست تلك المـادّة المتحرّكة إلى الأبد، والمليئة بالخصائص والقوى والحياة والذكاء كما تظهر في العالم الفعليّ، بل المادة المجرّدة المنتهية إلى الفقر والبؤس المدقِعَيْن بسبب نهب لصوص الفكرة المحكم، أي أولئك اللاهوتيين والميتافيزيقيّين الذين انتزعوا منها كل شيء ليقدّموه إلى امبراطورهم وإلههم، في هذه المادة المسلوبة من كل خاصّيّة، ومن كل تأثير ومن كل حركة ذاتيّة، والتي إذا ما قوبلت بالفكرة الإلهيّة لم تعد تعني شيئا، سوى الغباء واللاتحايزيّة والجماديّة والسكون المطلق.

والسقطة مهولة إلـى حدّ يجعل الألوهيّة شخصا كانت أو فكرة، تتسطّح وتفقد الوعي بذاتها ولا تعثر عليها. وفي هذه الوضعية اليائسة ترى أنها مرغمة على صنع المعجزات، لأنه مادامت المادّة ساكنة، فإن أقل حركة تحدث في العالم، ولو كان أشدّ العوالم ماديّة، تُعتبر معجزة، ولا يمكن أن تكون إلا نتيجة لتدخّل إلهيّ وتأثير من الإله على المادّة. وهكذا فإن تلك الألوهية المسكينة الملغاة أو تكاد، بسبب تلك السقطة، تبقى بضعـة آلاف من القـرون في حالـة الإغماء تلك، ثم تفيق ببطء، وتحـاول عبثـا أن تمسـك بتـلابيب بعض الذكريات المبهمة عن ذاتها، فتصير كل حركة تقوم بها لهذا الغرض، خلقـا وتكوينا جديدين ومعجزة جديدة. وتمرّ بهذه الطريقة بكل درجات الماديّة والحيوانيّة فتكون في البداية غازا ثم جسما

كيمياويّا بسيطا فمركّبا ثم معدنا ثم صوّانا، وبعد ذلك تنتشر في الأرض في شكـل تنظيم نباتي وحيوانيّ ثم تنحصر داخل الانســان ويبدو أنها وجدت فيه ذاتها، لأنها أشعلت في كل كائن بشريّ شرارة ملائكيّة وجزءا من ذاتها الإلهيّة هو الروح الخالد.

ولكن كيف استطاعت أن تُسكن شيئا مطلق الروحية في شيء مطلق المـاديّة ؟ وكيف يمكن أن يحبس الجسد الروح الخالص ويحدّه ويَشُلَّه ؟ إن هذه معضلة أخرى من المعضلات التي لا يمكن أن يُحلّها غير الإيمان، ذلك الإثبات الانفعالي والسخيف للاّ معقول. فهذه أكبر المعجزات، وليس لنا هنا إلا أن نلاحظ آثارها ونتائجها العمليّة.

بعد آلاف من القرون، ذهبت خلالها محاولات الألوهيّة العـودة إلى ذاتهـا سُدًى، وبعـد أن تاهت وتفرّقت في المادّة فبعثت فيها الحياة والحركة، وجدت أخيرا مُرتَكزًا ومقرّا تأوي إليه ذاتها، هو الإنسان أي روحها الخالد، الحبيسُ بغرابة في جسـد فانٍ. ولكن كل إنســان يُعتَـبر بمفرده شديد الضيق والضآلة إلى ما لا نهاية له حتى يمكنه احتواء العظمة الالهيّة، لذلك لا يستطيع أن يحتوي سوى جزء صغير جدا، خالد مثل الكل، لكنه أصغر من الكل إلى ما لا نهاية له. ويترتّب عن

هذا أن الكائن الالهي، ذلك الكائن المفارق * والروحي قابل للقسمة مثل المادّة. وهذا سرّ آخر يجب ترك أمره للإيمان.

لو كان الإله قادرا على أن يسكن بأكمله في كل إنسان، لكان كل إنسان هو الإله ولكانت لنا مجموعة هائلة من الآلهة، كل واحد يحدّه الآخرون وكلّ واحد مع ذلك لا مُتناه. وهذا تناقض يفرض حتما إبادة الإنسان للانسان، واستحالة وجود أكثر من واحد. أما الأجزاء فهذا أمر آخر. ومن المنطقي فعلا أن يحدّ الجزء الآخر ويكون أصغر من الكل، لكن تناقضا آخر يبرز هنا وهو أن كون الشيء أصغر أو أكبر، من خاصيّات المادة لا الروح كما يتصوّر المثاليّون، فالروح حسب الماديّين ليس إلا عمل مجموع الأعضاء الماديّة لدى الإنسان، وصغره أو كبره يتوقّفان على مدى اكتمال تلك الأعضاء الماديّ، لكن لا يمكن أن تُنسب خاصيات التحديد والكبر النسبية هذه إلى الروح كما يفهمه المثاليّون، أي إلى الروح اللاماديّ إطلاقا، والموجود خارج كلّ مادّة لأنه لا يمكن ان يكون هنالك ما هو أكبر ولا ما هو أصغر ولا أي حدّ بين الأرواح إذ ليس ثمّة إلا روح أوحد هو الإله وإذا ما أضفنا فقلنا إن الجزَيْئات الصغيرة إلى ما لا نهاية له، والمحدودة التي تكون الأرواح البشرية خالدة، فإننا نبلغ قمّة التناقضات، ولكن هذه قضيّة إيمان، فلنمرّ إذن!

---

* ما ليس محلاّ لجوهر ولا حالا في جوهر آخر.

ها أن الألـوهيّة تمزّقت إذن وسكنت من خلال جزيئات صغـيرة إلى ما لا نهاية له في مجمـوعـة هائلة من الكـائنات البشريّة، ذكورا وإناثا من مختلف الأعمار والشعوب والألوان. وهـذه الـوضعية شاقّة جدا بالنسبـة إليهـا وتَعِسَةٌ، لأن الأجزاء الالهية لم تعرف نفسها في بداية وجودها البشريّ إلا نادرا، فبدأت بافتراس بعضها بعضا، ورغم ذلك احتفظت هذه الأجـزاء الالهية أو الأرواح البشرية ببعض الـذكريات المبهمة عن ألوهيتها الأولى في خضمّ تلك الوحشيّة والقساوة الحيوانيّة، فانجذبت نحو الكلّ انجذابا لا يقاوم، وبحثت عن ذاتها وبحثـت عنه، إنه بحث الألوهية المنتشرة في العالم المادي والتائهة فيه، عن ذاتها داخل البشر. وقد خبلتها كثرة السجـون البشريّة التي انتشرت فيها إلى حدّ أنها اقترفت ما اقترفت من الأعمال المجنونة أثناء ذلك البحث.

وقد ابتدأته بالبُدّية * فعبدت ذاتها بذاتها تارة في حجر وتارة في خشبة وطورا في خرقة. وكان من الممكن جدّا ألا تخرج من ذلك لو لم تشفق عليها الألوهية الأخرى التي لم تسقط في المادّة وبقيت روحا خالصا في أعالي المثال المطلق السامية والسّماوات العلى.

---

* الإيمان بالبدود أو الأصنام.

وهذا سّر آخر، سّر الألوهية التي تنقسم إلى شطرين كلاهما عنيف ولا متناه يبقى أحدهما، أي الإله الآب في المناطق اللامادّية الصافية، ويسقط الآخر، أي الإله الابن في المادّة. وسنرى بعد حين هاتين الألوهيتين المنفصلتين عن بعضهما، تقيمان علاقات مستمرّة من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق، وتكوّن هذه العلاقات المعتبرة عملا واحدا أبديّا وثابتا، ما يسمّى بالرّوح القدس، ذلك هو سّر التثليث المسيحي الكبير والرهيب في معناه اللاهوتي والماورائي الحقيقي.

ولكن لنغادر هذه الأعالي مسرعين لنرى ماذا يحدث في الأرض!

لما رأى الآب من أعلى سنائه الأبدي أن الإله الإبن المسكين يتسطّح بسبب سقوطه وينذهل ويغوص في المادّة حتى يتيه فيعجز في حالته الانسانية عن ادراك ذاته، قرّر عندئذ مساعدته. ومن بين تلك الكميّة الهائلة من الأجزاء الخالدة والالهية والصغيرة إلى ما لا نهاية له في نفس الوقت، تلك التي انتشر داخلها الابن حتى عجز عن معرفة ذاته، اختار الإله الآب ما راق له من بينها وجعل منها مُلْهَميه وأنبياءه وعباقرته الفاضلين وكبار علماء الانسانية ومشّرعيها من أمثال زرادشت وبوذا وموسى وكونفوشيوس وليكورقوس Lycurgue وصولون solon وسقراط وأفلاطون العظيم، ويسوع المسيح قبل كل شيء، التجسيم الكامل للإله الابن الساكن

أخيرا والمتجمع في شخص بشريّ واحد وكل الرسل وخاصّة القدّيسين بطرس وبولس ويوحنّا من بينهم، وقسطنطين الكبير ومحمّد ثم قريقوريوس السابع Grégoire VII وشارلمان ودانتي حسب البعض، وكذلك فولتير وروسّو وروبسبيير Robespierre ودانتون Danton ، وكثيرا من الرجال العظام الآخرين والشخصيات التاريخيّة القدّيسة الذين يتعذر جمع كل أسمائهم، إلا أنّني وبوصفي روسيّا، أرجو ألا يُغْفَل ذكر القدّيس نيكولاي من بينهم.

وها نحن وصلنا إلى تجلّي الإله في الأرض. فمنذ أن ظهر تلاشى الإنسان. ويقولون إنه لم يتلاش أبدا مادام جزءا من الإله. ولكن عفوا. أنا أقرّ بأن الجزء أو القطعة من كل معيّن ومحدّد تمثّل، مهما كان صغرها، كميّة أو حجما فعليّا، لكن قطعة أو جزءا من الكلّ الكبير إلى ما لا نهاية له، من الضروريّ أن تكون بالنسبة إليه صغيرة إلى ما لا نهاية له. ولنقم بعمليّة ضرب مليارات المليارات في مليارات المليارات، فإن الحاصل سيكون بالمقارنة مع الكبير إلى ما لا نهاية له، صغيرا إلى ما لا نهاية له. والصغير إلى ما لا نهاية له يساوي صفرا. وبما أن الإله هو كل شيء فالإنسان وكل العالم الفعليّ والكون لا يعنون شيئا. ولن نخرج من هذا.

ظهر الإله فتلاشى الإنسان، وكلّما ازدادت الألوهية عظمة، ازدادت الانسانية بؤسا. تلك هي قصّة كل الديانات وتلك هي نتيجة كل وحي وكل تشريع إلهيين. وقد مثّل اسم الإله في التاريخ الهراوة التاريخية المرعبة التي قضى بها مختلف الملهمين والعباقرة الكبار على حريّة البشر وكرامتهم وعقولهم وازدهارهم.

وقد رأينا أوّلا سقوط الإله، وها نحن نرى الآن سقوطا يهمّنا أكثر هو سقوط الانسان الذي لم يسبّبه سوى ظهور الإله وتجلّيه في الأرض.

وهذا ما يبيّن لنا الخطأ الذي يتردّى فيه أعزّاؤنا ومثاليّونا الكبار، فعندما يحدّثوننا عن الإله يعتقدون بل يريدون السموّ بنا وتحريرنا وتنبيلنا لكنهم على عكس ذلك يسحقوننا ويذلّوننا . ويتوهّمون أنهم يستطيعون باسم الإله تحقيق الإخاء بين الناس، لكنهم يولّدون بعكس ذلك، الكبرياء والازدراء ويزرعون الشقاق والبغضاء والحرب، ويشرّعون العبوديّة إذ تأتي مع الإله حتما مختلف درجات الإلهام الإلهي، فتنقسم الإنسانية إلى مُلْهمين جدّا وأقل إلهاما وغير ملهمين بالمرّة. ويتساوى جميعهم أمام الإله إذ لا يعنون شيئا، لكن بعضهم أكبر من البعض الآخر إذا ما قورن بينهم. وليس هذا بقوّة الفعل، لأن اللامساواة تتلاشى من تلقاء نفسها وسط

مجموع الشعب، عندما لا تجد وهما أو تشريعا قانونيّا تتشبّث به، بل بقوّة قانون الوحي الإلهي، وهذا ما يمثّل لا مساواة ثابتة ومستمرّة ومتحجّرة، فينبغي على الأقل إلهاما وغير الملهمين أن يصغوا إلى الأكثر إلهاما ويطيعوهم. ذلك هو مفهوم السلطة الوطيد ومعه مؤسستا العبوديّة الأساسيتان: أي الكنيسة والدولة.

إن استبداد أصحاب العقائد أو الملهمين الدينيين، أشدّ أنواع الاستبداد وأبعدها طغيانا. فهم غيورون جدّا على مجد ربّهم وانتصار فكرتهم إلى حدّ أن قلوبهم يموت فيها كلّ إحساس بالحريّة أو الكرامة أو حتّى بآلام الأحياء والبشر الفعليّين. وذلك لأن الحمية الإلهيّة والاستغراق في الفكرة ينضبان في نهاية الأمر، منابع المحبّة البشريّة في أرأف النفوس وأرحم القلوب، وينظر هؤلاء إلى كلّ ما يوجد وإلى كل ما يحدث في العالم من زاوية الخلود أو الفكرة المجرّدة، ويتناولون الأمور العابرة باحتقار، لكن حياة الناس الفعليّين الذين من لحم ودم تتكوّن كلها من الأمور العابرة. وهم أنفسهم ليسوا إلا كائنات عابرة. ولما يمضون يُعوَّضون بكائنات عابرة مثلهم لكنهم لا يعودون أبدا. أما ما هو دائم وخالد نسبيّا في البشر الفعليّين، فهو الانسانيّة المتطوّرة بصفة مستمرّة والمزدادة ثراء من جيل لآخر. وأقول خالد نسبيّا، لأن كوكبنا صائر إلى الدمار، لأنه من الطبيعي أن يُدَمَّر أو يتدمّر إن عاجلا أو آجلا

نتيجـة حتمية لتطوّره. ولابدّ أن تكون نهاية لكل شيء ذي بداية. ومن يعلم مآل تطوّرنا البشري عندما يتحلّل كوكبنا ويتـدمّر ليصير بلا ريب عنصرا لتركيب جديد ما، في نظام الكـون أي في نظام الخلود الأوحـد ؟ وبـما أن موعـد هذا الانحلال بعيد بعدا كبيرا، يمكننا أن نعتبر الانسانية خالدة بالقياس إلى حياة الانسـان القصـيرة جدا. إلا أن مفهـوم الانسانية المتدرّجة ذاته لا يمكن أن يكون حقيقيّا وحيّا إلا إذا تحقّق في أزمنة وأمكنة محدّدة، وتجسّد في بشر أحياء بالفعل، لا في فكرته العامّة.

والفكـرة العـامّة تجريد دائما، وهي بالتالي رفض للحياة الفعلية بطريقة أو بأخرى. ولا يستطيع العلم أن يدرك من الأمـور الفعلية وأن يحدّد فيهـا سوى معناها العامّ وعلاقتها العـامّة وقوانينها العامّة، أي في كلمة واحدة ما هو دائم في تحوّلاتها المستمرّة. أما جانبها المادّيّ المميّز، النابض بالواقع والحياة، والعابر بالتالي، والمتعذّر إمساكه فلا وذلك لأن العلم يستوعب فكرة الواقع، لا الواقع نفسه، وفكرة الحياة لا الحياة بالذات. وذلك هو الحدّ الوحيد الذي يتعذّر عليه اجتيازه لأنه مقام على طبيعة التفكير البشري أي على عضو العلم الوحيد.

فعلى هذه الطبيعـة تنبني حقـوق العلم التي لا تُنـازع ومهمّته، وعليها أيضا ينبني عجزه الأساسي بل تأثيره المضرّ

كذلك كلما ادّعى لنفسه حقّ تسيير شؤون الحياة بلسان ممثّليه الرسميين والمبرّئين. وتتمثّل مهمة العلم في ملاحظة العلاقات العامة الرابطة بين الأمور العابرة والفعليّة، إلى جانب إقرار القوانين العامة الملازمة لتطوّر ظواهر العالم الماديّ والعالم الاجتماعي. فهو يرسم الطريق الذي تتمّ فيه مسيرة الانسانيّة التدريجيّة، ويبينّ للبشر شروط تطوّرهم العامة. والملاحظة الصارمة من أوكد شروط هذا التطور أما الجهل والنسيان فعدوّاه اللّدُودَان اللذان يقضيان عليه في نهاية الأمر. وخلاصة القول أن العلم هو بوْصلة الحياة لكنه ليس الحياة. فهو ثابت وعامّ ومجرّد ولا إحساس له، تماما كالقوانين التي ليس العلم إلا صورتها المثلى العقليّة أو الذهنية أي الدماغيّة، حتى نتذكر أن العلم ذاته ليس إلا نتاجا ماديّا لعضو ماديّ في التكوين الماديّ للانسان، هو الدماغ، في حين أن الحياة زائلة وعابرة إلا أنها نابضة بالواقع والذاتيّة والإحساس والآلام والأفراح والطموحات والحاجيات والانفعالات، ولا يخلق الأشياء والكائنات الفعليّة غيرها، بينما لا يخلق العلم شيئا، إنما يلاحظ فقط خلق الحياة ويقرُّه. وكلما خرج رجال العلم من عالمهم المجرّد ليهتمّوا بالخلق الحيّ في العالم الفعليّ، إلا وكان كل ما يقترحون أو يخلقون بائسا ومجرّدا على نحو مضحك، وفاقدا للدم والحياة، ومولودا ميّتا شبيها بالكائن الممسوخ الذي خلقه فاقنر Wagner التلميذ المتحذلق للدكتور

فاوست Faust الخالد لقوته Goethe . وينتج عن هذا أن مهمّة العلم الوحيدة هي تنوير الحياة لا حكمها.

إن حكم العلم أو رجال العلم حتى ولو كانوا وضعيّين من أتباع أوقست كونت. Auguste Comte أو حتى من أتباع مدرسة الشيوعيّة الألمانيّة، لا يمكن أن يكون إلا ضعيفا وتافها ولا إنسانيّا وطاغيا مستبدّا ومستغلاّ ومضرّا. ويمكن أن يقال عن رجال العلم مثلما قلت عن اللاهوتيين والميتافيزيقيين، فهم مجرّدون من أي إحساس أو عاطفة نحو الكائنات الفعليةوالحيّة، ولا نستطيع حتى لومهم على ذلك لأنه نتيجة مهنتهم المنطقيّة إذ لا يهمهم ولا يستطيعون أن يهتمّوا، بوصفهم رجال علم إلا بالشموليّات والقوانين المطلقة. وليس لهم أن يعتنوا بغير ذلك.

ولا يمكن أن تدرك الذاتية الفعلية والحية إلا من قبل ذاتيّة فعليّة وحيّة أخرى، لا من قبل ذاتيّة مفكرة، ولا من قبل شخص يضع نفسه، بواسطة سلسلة من التجريدات، خارج الاتصال المباشر بالحياة وفوقه. فهي لا يمكن أن تكون في نظر هؤلاء إلا نموذجا تقريبيّا للنوع، أي لتجريد محدّد. وإن كان الأمر يتعلّق بأرنب مثلا، فكلما كان النموذج أجمل، شرّحه العالم بكل سرور أملا في التمكن من إبراز طبيعة النوع العامة وقانونه من خلال هذه الابادة.

ولولا الاعتراضات، لمازال إلى اليوم عدد من أولئك الذين يدفعهم التعصّب إلى إجراء التجارب عينها على الانسان.

وإن كان علماء الطبيعة لا يجرؤون اليوم على تشريح الأحياء، فلأن اعتراضات الحياة العنيفة، هي التي منعتهم من مواصلة ذلك، وليس العلم. ورغم أنهم يقضون ثلاثة أرباع حياتهم في الدرس، ورغم أنهم يمثّلون في التنظيم الحاليّ عالما منفصلا، وهذا ما يضرّ في نفس الوقت بسلامة قلوبهم وأذهانهم، فهم ليسوا رجال العلم فحسب، بل رجال الحياة كذلك.

على أنه لا يجب أن نطمئن إلى هذا الأمر كثيرا. وإن جاز لنا أن نكون تقريبا على يقين بأن رجل العلم لن يجرؤ على معاملة الانسان كما يعامل الأرنب، فعلينا أن نخشى من أن تُخضع هيئات العلماء، الناس الأحياء إلى تجارب علميّة هامّة دون شك، ولكن بشعة بالنسبة إلى ضحاياها. وإن أعوزهم أن يجروا التجارب على جسم الانسان، فإنهم يتطلّعون إلى إجرائها على جسم المجتمع. وهذا ما يجب منعه إطلاقا!.

ويكوّن العلماء في هذا التنظيم الحاليّ الذي يحتكرون فيه العلم، طبقة مغلقة فيها شبه كبير بطبقة رجال الدين، فالتجريد العلمي هو إلههم والذّاتيّات ضحاياهم وهم ذابحوها المبرؤون.

ولا يستطيع العلم أن يخرج من دائرة التجريد. والفنّ في هذا المجال يفوقه كثيرا. وهو لا يهتم كذلك إلا بالنماذج والحالات العامّة، لكنه يجسّدها ببراعة يختصّ بها. وليست تلك الأشكال الفنيّة الحياة دون شك، لكنها تثير في خيالنا ذكريات عنها وإحساسا بها. إن الفن يشخّص بشكل ما، النماذج والحالات التي يستوعبها، فيذكّرنا بالذّاتيات الحيّة والفعليّة التي تلوح وتختفي عن أعيننا بواسطة ذاتيّات لا حياة فيها، ومستمرّة بالتالي وأبديّة، له القدرة على خلقها. فالفنّ هوالعودة بطريقة ما من التجريد إلى الحياة، أما العلم فهو بعكس ذلك قتل دائم للحياة الزائلة والعابرة والفعليّة كذلك، على مذبح المجرّدات الأبديّة.

كما أن العلم غير قادر على إدراك ذاتيّة إنسان ولا ذاتيّة أرنب كذلك. وهذا لا يعني أنه يجهل مفهوم الذاتيّة، فهو يدركه تماما كمفهوم لا كفعل. ويعرف حقّ المعرفة أنه ليس لكل الأنواع الحيوانيّة بما فيها النوع البشري وجود فعلّي إلا داخل عدد غير محدّد من الكائنات التي تعيش وتموت لتُخليَ المكان لكائنات أخرى زائلة كذلك. ويعرف أيضا أنه كلما ارْتُقِيَ - من الأنواع الحيوانية إلى الأنواع العلْيا، تحدّد مفهوم الذاتيّة أكثر وبدت الكائنات أكثر اكتمالا وحريّة. ويعرف أن الانسان، آخر حيوانات هذه الأرض وأكملها، يمثّل الذاتيّة الأكثر اكتمالا وروعة بفضل ملكة إدراك قانون الكون وتكثيفه

وتشخيصه بطريقة ما في حياته الاجتماعية والخاصّة، ويعرف أخيرا، ما لم يفسده التمذهب اللاهوتي أو الميتافيزيقي أو السياسي أو القضائي أو حتى الكبرياء والزهو، وما لم يُصمَّ أذنيه عن غرائز الحياة ومتطلّباتها، أن احترام الانسان هو قانون الانسانيّة الأسمى، وأن هدف التاريخ الأكبر والحقيقي والشرعي هو الأنسنة والتحرير والحرية الفعلية، أي ازدهار كل إنسان يعيش في المجتمع، لأنه لابدّ من الاعتراف بأنه لا وجود لحريّة وازدهار جماعيّين إلا من خلال حاصل حرّيات ورفاهيات فرديّة، والا سقطنا من جديد في الفكرة الوهميّة، وخانقة الحريّة القائلة بتمثيل الدولة للمصلحة العامّة والقائمة دائما على سحق الشعب الشامل.

يعرف العلم كل هذه الأمور لكنه لا يستطيع تجاوزها. وبما أن طبيعته الخاصّة يكوّنها التجريد فإنه يستطيع أن يدرك مفهوم الذاتيّة الفعليّة والحيّة إدراكا جيّدا، لكنه لا يمكنه أن ينشغل بالأفراد الفعليين والأحياء، فهو يهتمّ بالناس عموما، لكنه لا يولي اهتماما ببطرس أو جاك أو فلان أو فلان الذين لا يمكن أن يوجدوا في تصوّره إذ أن الأفراد ليسوا بالنسبة إليه إلا مجرّدات.

ورغم ذلك، فالأفراد المتحرّكون والأحياء هم الذين يصنعون التاريخ، لا الذاتيّات المجرّدة. ولا يمكن

للمجرّدات أن تسير إلا محمولة من قِبل بشر فعليين. وليس للعلم أدنى شعور نحو هذه الكائنات المجبولة من لحم ودم لا في الفكرة فقط بل في الواقع كذلك، إذ لا يعتبرهم في أحسن الحالات سوى « لحم ذي تطوّر فكريّ واجتماعي ». فما يعنيه من ظروف بطرس وجاك الخاصّة ومن مصيرهما العرضي؟ إنه لا يهتمّ بذلك إلا كمثال لدعم نظريّاته الخالدة، ولو رام غير ذلك لصار تافها واستقال وتلاشى. وليس من المعقول أن نلومه على ذلك لأنه يمتثل لقوانينه إذ لا يستطيع أن يدرك المحسوس ولا يمكن أن يتحرّك إلا داخل المجرّدات. وتتمثل مهمته في الاهتمام بحالة الحياة وظروفها العامّة، وبتطوّر الجنس البشري عموما، أو بتطوّر ذلك الجنس أو ذلك الشعب أو تلك الطبقة أو ذلك الصنف من الأفراد، وبأسباب ازدهارهم أو انحطاطهم العامّة، وبالوسائل العامة الصالحة لتقدمهم في كل الأحوال. فإذا ما نفّذ هذه المهمة بطريقة كاملة وعقلانيّة، فقد قام بواجبه على الوجه الأمثل، ومن الجور حقّا أن نطالبه بالمزيد.

وليس من المعقول كذلك أن نُنيط بعهدته مهمّة يعجز عن القيام بها. وتكون النتيجة مفجعة لأن طبيعته تحمله على تجاهل وجود بطرس وجاك ومصيرهما، لذلك سيظلّ يتجاهلهما، لكن ممثّليه المبرئين ليسوا أشخاصا مجرّدين، بل رجالا مليئين بالحياة، ذوي مصالح فعليّة جدا، خاضعين

للتأثير المفسد الذي تسلّطه الامتيازات على البشر، وسيسلخون الأحياء الآخرين في نهاية الأمر باسم العلم كما سلخهم إلى حدّ الآن الكهّان والسّاسة من مختلف الألوان، والمحامون باسم الإله والدولة والقانون.

ما أدعو إليه إذن هو إلى حدّ ما ثورة الحياة على العلم، أو بالأحرى على حكم العلم، لا لتدمير العلم لأن ذلك جريمة في حقّ الإنسانيّة، بل لوضعه في مكانه حتى لا يستطيع بعد ذلك الخروج منه أبدا. فلم يكن تاريخ البشر إلى اليوم سوى تضحية دائمة ودموية بملايين من الناس المساكين في سبيل فكرة مجرّدة شرسة قد تكون الإله أو الوطن أو قوّة الدولة أو الشرف القومي أو القوانين التاريخيّة أو القوانين القضائية أو الحرية السياسيّة أو المصلحة العامّة. وهكذا كانت إلى يومنا هذا حركة المجتمعات البشريّة الطبيعية والتلقائية والحتميّة. ونحن لا نستطيع شيئا أمامها، وعلينا أن نخضع لها فيما يخص الماضي كما نخضع لكل الحتميات الحاليّة، لأنها كانت الطريقة الممكنة الوحيدة لتربية الجنس البشري. فلا يجب أن نخطئ، لأننا وإن نسبنا القسط الأكبر إلى خدع الطبقات الحاكمة الماكيافيليّة، علينا أن نعترف أنه ليس لأي أقليّة القوة الكافية لفرض تلك التضحيات الفظيعة على الطبقات الشعبية، لو لم يكن داخل هذه الطبقات حركة دواريّة وتلقائية تدفعهم دوما للتضحية، تارة في سبيل هذه وطورا في سبيل

تلك المجرّدات المفترسة ومصّاصة دماء التاريخ التي اغتذت دوما بالدماء البشريّة.

ونحن نفهم لماذا يجد اللاهوتيون والسّاسة ورجال القانون هذا أمرا حسنا، إذ لا يعيش كهّان المجرّدات أولئك، إلا من ذلك الذبح المتواصل للطبقات الشعبية، كما لا يجب أن تثير استغرابنا موافقة الميتافيزيقيا على ذلك، إذ تتمثل مهمتها الوحيدة في تبرير كل ما هو جائر ولا معقول، وعقلنته قدر الإمكان. أما أن يسير العلم الوضعيّ نفسه في ذات الاتجاه، فهذا ما يجب رثاؤه عند التأكد منه. وإن لم يقم بهذا، فلسببين: أولهما أنه ممثّل من قبل هيئة ذات امتيازات، ومكوّن خارج الحياة، وثانيهما أنه جعل نفسه إلى حدّ الآن، الهدف المطلق والأخير من وراء كل تطوّر بشري. وكان عليه - بواسطة عمليّة نقد ذاتي ذكية يستطيع القيام بها، وسيجد نفسه في الآخر مرغما على ذلك - أن يدرك أنه ليس إلا وسيلة لتحقيق هدف أرفع بكثير، هو الأنْسَنَةُ الكاملة لكل الأفراد الفعليين الذين يولدون في الأرض ويعيشون ويموتون.

وميزة العلم الوضعيّ الكبرى، بالقياس إلى علم اللاهوت والميتافيزيقيا والسياسة والقانون القضائي، تتمثّل في أنه، وخلافا للمجرّدات الكاذبة والمفسدة التي تبشر بها تلك العقائد، يعتمد مجرّدات حقيقيّة تعبّر عن طبيعة الأشياء

العامّة والمنطقية، وعلاقاتها العامّة، وقوانين تطوّرها العامة، وهـذا ما يضمن له دومـا منزلة هامّة في المجتمع لأنه يمثل بطريقة ما، وعيه الجماعيّ. إلا أنه فيه جانب يشابه من خلاله كل المعتقدات السالفة. فما دام العلم لا يستطيع الاهتمام بغير المجـرّدات، فإن طبيعته تفرض عليه تجاهل البشر الفعليّين الذين ليس لأصحّ المجرّدات وجود خارجهم أبدا ولتدارك هذا الخطأ الجوهري، يجب على علم المستقبل أن ينتهج أسلوبا مغايرا لأساليب عقائد الماضي التي انتفعت من جهل الطبقات الشعبيّة، لتقدّمها بكل تلذّذ قربانا لمجرّداتها، التي تعود على كل حال بكسب كبير لممثليها الذين من لحم ودم. ويجب على العلم الوضعي المقِرّ بقصوره المطلق عن إدراك الأفراد الفعليين والاهتمام بمصائرهم، أن يتخلّى تخليّا نهائيا ومطلقا عن فكرة حكم المجتمعـات، لأنـه لو اهتم بذلـك، لما استطاع غير التضحية الـدائمـة بالبشر الأحياء الـذين يجهلهم في سبيل المجرّدات التي تمثّل هدف اهتماماته المشروعة الأوحد.

مازال علم التاريخ الحقيقي غير موجود. ولم تُتَجاوزْ إلى اليوم بداية استشفاف شروطه المعقّدة جدا. ولكن لنفترض أنـه اكتمـل نهائيّا فماذا يمكن أن يقـدّم لنا ؟ إنه سيصحّح الجـدول الـدقيق والمدروس للتطوّر الطبيعي الذي مرّت به الأوضـاع العـامّـة المـاديّة والمثـاليّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والـدينيّة والفلسفية والفنيّة والعلميّة في المجتمعـات التي لها

تاريخ . ومهما بلغ جدول الحضارة الانسانية العالميّ هذا ، من التفصيل ، فلن يستطيع أن يحتوي سوى تقديرات عامّة وبالتالي مجرّدة. فمليارات الأفراد الذين مثّلوا المادّة الحيّة والمتألّمة لذلك التاريخ المفجع ، والمنتصر على جثث الضحايا البشريّين المسحوقين « تحت مركبة مجده » هؤلاء المليارات من الأفراد المغمورين الذين لولاهم ، لما كانت نتيجة من نتائج التاريخ الكبرى المجرّدة التي لم يغنموا منها شيئا البتّة ، هؤلاء لن يجدوا مكانا في حوليّاتنا ، وقد عاشوا وسُحقوا في سبيل الانسانيّة المجرّدة . وهذا كل ما في الأمر.

فهل يجب أن نؤاخذ علم التاريخ على ذلك ؟

لو فعلنا ، لكان ذلك من باب الجور والسخافة ، إن الأفراد لا تدركهم الفكرة ولا التأمل ، ولا حتى كلام البشر الذي لا يستطيع التعبير إلا عن المجرّدات فهم لا يدركون في الحاضر كما في الماضي ، ولهذا سيواصل علم الاجتماع ، أي علم المستقبل بالضرورة تجاهلهم . وكل ما نحن محقّون في مطالبته به ، هو أن يُبيّن لنا بدقّة ويقين الأسباب العامّة للآلام الفرديّة دون أن ينسى من بين هذه الأسباب تضحية الأحياء في سبيل العموميّات المجرّدة والخضوع لها ، وهذا لايزال متواصلا للأسف . كما يوضح لنا في نفس الوقت الشروط العامّة والضروريّة لتحرّرهم الفعلي في المجتمع . تلك هي مهمته وتلك أيضا حدوده التي لا يمكن أن تكون نتيجة علم

الاجتماع، إذا ما جاوزها، سوى العجز والضّرر، وتبدأ عند هذا التجاوز ادّعاءات ممثّليه المبرّئين وكهّانه، العقديّة والحكومية. وقد آن الأوان لكي نتخلّص من هؤلاء الأحبار المتبحّحين، حتى وإن تسمّوا بالديمقراطيين الاشتراكيين.

ومرّة أخرى، أؤكد أن مهمّة العلم الوحيدة تتمثل في إنارة الطريق، وليس لغير الحياة القدرة على الخلق إذا ما تحرّرت من قيودها الحكوميّة والعقديّة واستعادت عملها المكتمل.

كيف نحلّ إذن هذا التناقض المتمثل في كون العلم ضرورة لازمة لتنظيم المجتمع العقلي من ناحية، وفي كونه عاجزا عن الاهتمام بما هو فعلّي وحيّ من ناحية أخرى؟.

لا توجد سوى طريقة واحدة لحلّ هذا التناقض، وهي ألا يبقى العلم خارج حياة كل الناس حبيس هيئة ممثليه العلماء المبرئين، وان ينصهر في الطبقات الشعبية وينتشر بينها ليصبح بالفعل ملكا لكل الناس، ويمثل بحقّ وعي المجتمع الجماعي دون أن يفقد شيئا من طابعه الشموليّ الذي لا يستطيع التنازل عنه وإلا لما عاد علما، ودون التوقف عن الاهتمام بالأسباب العامّة وبأوضاع الأفراد والأشياء، وعلاقاتهم الثابتة لينصهر في حياة كل الناس الحاضرة والفعليّة. وسيكون هذا الأمر مشابها لما جعل الدّعاة يعلنون عند بداية الإصلاح الديني أنه لم تعد حاجة لكهنة بالنسبة إلى شخص قد صار

كاهن نفسه، لأن كل إنسان قد تمكّن أخيرا بفضل تدخّل يسوع المسيح الخفيّ من ابتلاع إلهه.

لكن الأمر لا يتعلّق هنا لا بيسوع المسيح ولا بالآب ولا بالحرية السياسيّة ولا بالقانون القضائي وكل تلك الأمور الموحى بها لاهوتيّا وما ورائيا، والتي يعسر هضمها كذلك لأن عالم المجـرّدات العلميّة لم يُوحَ به أبدا، بل هو ملازم للعالم الفعلّي وما هو سوى تعبير عنه وتجسيم له عامّ أو مجرّد. ومادام يمثّل منطقة منفصلة وممثلة خاصّة من قبل هيئة العلماء، فإن عالم المجـرّدات هذا يهدّدنا باحتلال مكان الإله إزاء العالم الفعلي وتخصيص دور الكهنة لممثليه المبرئين. ولهذا السبب يجب أن يقع حلّ التنظيم الخاص بالعلماء بالتعليم الشامل والمتساوي بالنسبة إلى كل الذكور والإناث حتى تخرج الطبقات الشعبية من وضعيّة القطعان المنقادة التي يجزّها الكهّان ذوو الامتيازات وتستطيع التحكم في وجهة مصيرها بنفسها *

* عندما يصير العلم تراث كل الناس، يتآلف بطريقة ما مع حياة كل الناس الحاضرة والفعليّة ويعوّض بالمنفعة واللطافة ما يكون خسره من كبرياء وطموح وتحذلق عقديّ. وهذا لن يمنع دون شكّ العباقرة المهيّئين أكثر من بقيّة معاصريهم للتأمّلات العلميّة، من العكوف على دراسة العلوم وتقديم خدمات جليلة للإنسانيّة إلا أنهم لن يطمعوا في أي نفوذ اجتماعي سوى النفوذ الطبيعي الذي يمارسه عقل متفوق على محيطه، ولا في أي مكافأة ماعدا الارتياح الذي يسبّبه اندفاع نبيل (أي اللذة الكبرى التي يشعر بها كل فكر فذّ أثناء ارضاء نزعة نبيلة). تعليق باكونين.

ولكن هل يجب أن تترك الطبقات الشعبية حكمها بيد رجال العلم ما لم تبلغ ذلك المستوى من التعليم ؟ لا ، طبعا ، بل أفضل لها أن تستغني عن العلم من أن يحكمها العلماء ، لأن نتيجة حكم هؤلاء الأولى ستكون جعل العلم متعذّرا بلوغه من قبل الشعب ، لأن مؤسسات العلم الحاليّة ارستقراطية كلها ، إنها الأرستقراطية العالمة ، الأعند من الناحية العمليّة والأكثر اغترارا وإذلالا من الناحية الاجتماعية ، وسيكون الحكم المعلن باسم العلم على هذه الشاكلة . وسيكون هذا النظام قادرا على شلّ حياة المجتمع وحركته لأن العلماء المعتدّين بأنفسهم والمزهوّين بها والعاجزين مع ذلك سيصرّون على التدخل في كل شيء حتى ينضب هبوب تجريدهم ينابيع الحياة .

وأكرر مرة أخرى أن الحياة هي التي تخلق الحياة وليس العلم ، وأن عمل الشعب التلقائي فقط يستطيع خلق الحريّة . ومن المسعد حقّا أن يتمكن العلم منذ اليوم ، من تنوير مسيرة الشعب التلقائية نحو تحرّره .

لكنّ انعدام النور أفضل من ضياء مرتعش ومتقلّب لا دور له سوى إضلال متّبعيه . كما أن الشعب لم يقطع مسافة تاريخيّة طويلة عبثا ليدفع ثمن أخطائه أثناءها قرونا من البؤس ، بل تمثّل الخلاصة العمليّة لتجاربه المؤلمة ضربا من العلم

التقليدي الموازي في بعض النواحي للعلم النظري. كما أن قسما من الشباب، وأقصد أولئك الذين يشعرون من بين البرجوازيين المجدّين بما يكفي من البغض نحو بهتان البرجوازيّة وريائها وجورها ونذالتها، حتى يجدوا في أنفسهم الشجاعة لاحتقارها، والهوى الذي يدفعهم إلى اعتناق قضايا الطبقة الكادحة، العادلة والانسانية، أولئك سيصيرون كما ذكرت، مدرّسي الشعب الإخائيين، وبفضلهم تنتفي الحاجة إلى حكومة العلماء.

وإن كان على الشعب أن يحترس من حكومة العلماء فمن الأجدر به أن يحذر حكومة المثاليين الملهمين كذلك ا

فكلما كان المؤمنون وكهّان السماء صادقين، زاد خطرهم. وقد ذكرت أن التجريد العلميّ تجريد فكري وصحيح في جوهره وضروريّ للحياة التي ليس سوى صورتها النظريّة أو ضميرها إن شئنا. ومن الممكن، بل من الواجب أن تبتلعه الحياة وتوجّهه. أما التجريد المثالي أو الإله، فسُمٌّ مبيد يدمّر الحياة ويعفنها ويفسدها ويقتلها. وليس كبرياء العلماء سوى كبرياء شخصيّ يمكن إخضاعه أو تحطيمه، وما كبرياء المثاليين بالبشريّ. بل إلهيّ هو وشرس وغضوب. ويمكن بل يجب أن يموت، لكنه لن يرضخ أبدا. وسيحاول، طالما تردّد فيه نفسُ حياة، إخضاع البشر لإلهه، ولذلك كم يتمنى ضبّاط بروسيا، مثاليّو ألمانيا العمليّون أن يروا الشعب مسحوقا تحت

جزمة امبراطورهم ذات المهاميز. إنه نفس الإيمان، ولا يختلف الهدف في شيء. فنتيجة الإيمان هي العبوديّة دوما، وكذلك انتصار أبشع الماديّات وأعنفها. ولسنا في حاجة لكي نبرهن على هذا بالنسبة إلى ألمانيا لأنه يجب أن يكون المرء أعمى حتى لا يراه.

إن الانسان مثل باقي الطبيعة الحيّة كائن ماديّ تماما وكذلك العقل، أي ملكة التفكير والتحصيل والتأمل في مختلف الأحاسيس الخارجية والداخليّة وتذكرها بعد انقضائها وتصويرها بواسطة الخيال ومقارنتها والتمييز بينها وتجريد تحديداتها المشتركة لصياغة المفاهيم العامة بهذه الطريقة، وتكوين الأفكار في آخر الأمر بتجميع المفاهيم وترتيبها بكيفيات مختلفة. فخلاصة كل هذا أن الذكاء، أي الخالق الأوحد لعالمنا المثالي خاصيّة من خاصيّات الجسم الحيواني والجهاز الدماغي خصوصا.

وهذا أمر نعرفه معرفة اليقين بواسطة تجربة الجميع التي لم تفنّدها الأحداث ويستطيع كل إنسان التثبّت منها. فلدى كل الحيوانات دون استثناء أنواعها السفلى، توجد درجة معيّنة من الذكاء. كما نرى في سلسلة الحيوانات أن الذكاء الحيواني يتطوّر كلما اقتربت بنية النوع من بنية الإنسان على أنه لا يبلغ تلك القدرة على التجريد التي تكون التفكير إلا لدى الإنسان.

وتبيّن لنا التجربة العامّة * أصل كلّ معارفنا ومصدرها الوحيد، أن كل ذكاء مرتبط دوما بجسم حيوانيّ، وأن كثافة هذه الوظيفة الحيوانيّة وقوّتها مرتبطتان باكتمال الجسم النسبي. ونتيجة التجربة العامّة هذه، لا تطبّق على مختلف الأنواع الحيوانيّة فحسب، بل نلاحظها أيضا لدى البشر الذين ترتبط قدراتهم الفكريّة والأدبية ارتباطا شديد الوضوح باكتمال أجسامهم التقريبيّ حسب الجنس والشعب والطبقة والأفراد إلى حدّ أنه لا داعي للإلحاح على هذه النقطة *.

---

* يجب التمييز بين التجربة العامّة التي تنبني عليها كل العلوم وبين الإيمان العام الذي يريد المثاليون تدعيم معتقداتهم به. فالأولى ملاحظة فعليّة للأحداث أما الثاني فما هو إلا افتراض لأحداث لم يرها أحد وهي بالتالي مناقضة لتجربة كل الناس - (تعليق باكونين).

* إن الاختلاف الموجود بين الأجناس والشعوب والأفراد يجعل المثاليين وكل من يؤمن بلا ماديّة الروح وخلوده في حيرة شديدة من أمرهم فكيف يفسرون هذا الاختلاف إذا لم يفترضوا أن الأجزاء الالهيّة لم توزّع بعدل ؟ يوجد للأسف عدد كبير من الناس الحمقى والأغبياء إلى حدّ العته، فهل أنهم تلقّوا أثناء التوزيع جزءا إلهيّا وغبيّا في نفس الوقت ؟ للتخلّص من هذا المأزق يفترض المثاليون حتما أن كل الأرواح البشرية متساوية، لكن السجون التي توجد فيها حبيسة بالضرورة، أي الأجسام البشرية غير متساوية، وبعضها أصلح من البعض الآخر ليكون عضوا لعقلانيّة الروح الصافي، فيجد هذا تحت تصرّفه أعضاء شديدة الدقة، ويجد ذاك أعضاء عديمة الاتقان. لكن ليس للمثاليّة

ومن الأكيد من جهة أخرى أن أيّ بشر لم ير أو يستطع رؤية العقل الخالص المنفصل عن كل شكل ماديّ والمستقل عن جسم حيوانّي ما، ولكن كيف وصل الناس إلى الإيمان بوجوده ما لم يره أحد ؟ إن انتشار هذا المعتقد أمر أكيد، وإن لم يكن شاملا كما يزعم المثاليّون فهو على الأقل عامّ جدّا، لذلك هو جدير باهتمامنا الفائق. والاعتقاد العامّ يسلّط، مهما بلغ من الحماقة تأثيرا عظيما على مصير البشر إلى حدّ أنه لا يمكن تجاهله أو غضّ النظر عنه.

الحق في استعمال هذه التمييزات دون أن تسقط بدورها في التناقض والماديّة الأشد فظاظة، وذلك لأن الفروق الجسديّة تنعدم أمام لاماديّة الروح المطلقة، وكل ما هو مادّي، يجب أن يبدو غير مهمّ وشديد الفظاظة. فالهوّة التي تفصل بين الروح والجسد وبين اللامادية المطلقة والمادية المطلقة لا متناهية، لذا على كل الفروقات التي لا تفسير لها على كل حال، والمستحيلة منطقيا، والتي قد توجد في الجانب الآخر من الهوّة أي في المادة، أن تكون غير ذات معنى بالنسبة إلى الروح، ولاغية. ولا تستطيع أن تؤثر، بل يجب ألا تمارس عليها أي تأثير. وخلاصة القول أن اللاماديّ إطلاقا لا يمكنه أن يحتوى أو يسجن داخل المادي إطلاقا. أو أن يعبّر عنه من قبله بأي درجة من الدرجات. ومن بين كل الأوهام الفظّة والماديّة بالمعنى الذي يعطيه المثاليّون لهذا اللفظ أي الأوهام العنيفة التي ولّدها جهل البشر وغباؤهم البدائي، فإن الوهم القائل بسجن الروح اللاماديّ داخل جسد مادّي، هو أرعنها وأغباها. ولا شيء يؤكد التأثير الجبّار الذي تسلّطه الآراء المسبّقة العتيقة على أكبر العقول مثل رؤية أناس يتمتّعون بذكاء خارق يواصلون الحديث عن هذا الاتحاد الغريب - (تعليق باكونين).

ويفسّر هذا الاعتقاد على كلّ حال تفسيرا عقلانيّا. والمثل الـذي يضربـه لنا الأطفال والمراهقون وحتى رجال كثيرون تجاوزوا سنّ الرشد منذ وقت طويل، يبين لنا أن الانسان يمكنه أن يستخـدم ملكاته الذهنيّة طويلا قبل أن يتبينّ الطريقة التي يستخدمها بها. وفي فترة اشتغال الذهن اللاواعي تلك، أي في فترة عمـل العقـل السـاذج أو المؤمن، يكون الإنسان، محصـور الاهتمام في العالم الخارجيّ، ومدفوعا بذلك الحافز الداخليَ الذي سيسمّى الحياة، وبضروراتها المتعدّدة، فيخلق مجموعة من الأوهام والمفاهيم والأفكار الناقصة حتما في بداية الأمـر، وقليلة المـطابقـة لحقيقة الأشياء والأمور التي تحاول جاهدة التعبير عنها. وبما أنه مازال فاقدا الوعي بعمله الذهني هذا، وجاهلا أنه هو الذي خلق ومازال يخلق تلك الخيالات والمفـاهيم والأفكار، وجاهلا مصدرها الذاتي أي البشريّ، فقد اعتبرها مثل الكائنات الفعليّة، كائنات موضوعيّة، مستقلّة عنه استقلالا كاملا وموجودة بذاتها وفي ذاتها.

وبهذه الطريقة خلقت الشعوب البدائية، المنبثقة ببطء من سذاجتها الحيوانيّة آلهتها. وبعد ذلك لم يدركوا أنهم خالقوها الأوحدون، فعبدوها واعتبروها كائنات فعليّة تفوقهم في علوّ الشأن ورفعة المقام إلى ما لا نهاية له. ونسبوا إليها الجبروت وجعلوا أنفسهم مخلوقـاتهـا وعبيدها. وكلما تطوّرت الأفكار البشريّة، تأمثلت الآلهة التي ليست سوى تجلٍّ خياليّ ومثالي

وشعريّ للصّورة المقلوبة، فكانت في أوّل الأمر بدودا بدائية، ثم صارت شيئا فشيئا أرواحا صافية موجودة خارج العالم المرئي، ثم امتزجت في آخر الأمر عبر مسيرة التاريخ، في كائن إلهيّ واحد، وروح صاف وخالد ومطلق، خالق العوالم وسيّدها.

ولاتهمّ في كل التطورات الصحيحة أو المخطئة، والفعليّة أو الوهميّة والجماعيّة أو الفرديّة سوى الخطوة الأولى، وأصعب الأمور مبادئها. وبعد تجاوز هذه الخطوة تسير بقيّة الأمور بطريقة طبيعيّة، وكأنها نتيجة ضروريّة لها.

وأعسر ما في التطوّر التاريخي الذي عرفه هذا الجنون الديني الرهيب الذي مازال يرهقنا، كان إقامة عالم إلهيّ خارج العالم الفعليّ. لكن هذا العمل الجنوني الأوّل، الطبيعي جدا من الناحية النفسيّة، والضروريّ بالتالي في تاريخ البشر، لم يتحقّق دفعة واحدة، بل استلزم لست أدري كم من القرون ليُطوِّر هذا المعتقد، وليغلغله في عادات البشر الاجتماعية. لكنه صار بعد تثبّته، جبّارا كما يصير الجنون حتما عندما يعصف بدماغ الإنسان. ولنأخذ مثلا مجنونا، فمهما اختلف سبب جنونه، لابدّ أن نجد أن الفكرة المبهمة والثابتة التي تستبدّ به، تبدو له طبيعيّة إلى أبعد الحدود بينما يتراءى له أن الأمور الواقعية التي تناقض تلك الفكرة جنونا تافها وشنيعا.

فالدين إذن جنون جماعيّ ، وما يزيده قوّة هو أنه جنون مألوف تضيع جذوره في العصور القديمة جدّا. وبما أنه جماعيّ ، فقد نفذ إلى أعماق حياة الشعوب العامّة والخاصّة، وتجسد في المجتمع حتى صار روحه وفكره الجماعيّين، فكل إنسان يُطوَّق به منذ ولادته ويرضعه مع لبن أمه ويتجرّعه مع كل ما يلمسه ويراه، فيتغذّى به ويسمّ ويخترق كامل ذاته إلى حدّ أنه مهما كانت قوّة ذهنه الطبيعيّة، فإنه في حاجة إلى بذل جهود جبّارة فيما بعد حتى يتخلّص منه، ولن يتمكن من ذلك بصفة نهائية. ومثاليّونا المعاصرون دليل على ذلك، وماديّونا العقديّون أي الشيوعيّون الألمان دليل آخر. إنهم لم يستطيعوا التخلّص من ديانة الدولة.

وبعد أن أرسيت قواعد العالم الفَوْطَبيعيّ أي العالم الإلهيّ في خيال الشعوب البدائيّ، واصل تطوّر مختلف العقائد الدينية سيره الطبيعي والمنطقي المطابق على كل حال لتطوّر العلاقات الاقتصادية والسياسية الذي عاصره ليكون في كل العصور صورته الدقيقة وإقراره الالهيّ. وهكذا تطوّر الجنون الجماعيّ والتاريخيّ المسمّى دينا من البُديَّة ليمرّ بمختلف الدرجات من الديانات ذات الآلهة المتعدّدة إلى ديانة التوحيد المسيحيّة.

أما الخطوة الثانية والأعسر بلا ريب في تطوّر المعتقدات الدينية بعد إقامة عالم إلهيّ منفصل، فقد كانت بالتحديد، التحوّل من تعدّد الآلهة إلى التوحيد ومن ماديّة الوثنيّين الدينية إلى إيمان المسيحيين الروحاني. وقد كانت آلهة الوثنيّين. وتلك خاصّيتها ـ قومية، وحافظت نتيجة لكثرتها، على طابع ماديّ، أو كانت بالأحرى ماديّة لأنها كانت كثيرة جدا مادام التعدّد من أهمّ خاصّيات العالم الفعليّ. ولم تكن آلهة الوثنيين نفيا للأمور الفعليّة بعد، بل كانت تهويلها الخياليّ فحسب.

وقد رأينا كم دفع الشعب اليهودي ثمن ذلك التحوّل الذي شغل كامل تاريخه. وعبثا كان موسى والأنبياء يبشّرون بالإله الواحد لأن الشعب كان يرجع دوما إلى وثنيّته الأولى أي إلى الديانة القديمة الطبيعيّة ذات الآلهة الكثيرة والطيّبة والماديّة والإنسانيّة والملموسة. ويهوه نفسه، إلههم الأوحد وإله موسى والأنبياء مازال آنذاك إلها قوميّا إلى أبعد الحدود لا يستعمل لإثابة المؤمنين به، أي شعبه المختار، وعقابهم سوى البراهين الماديّة، السخيفة غالبا، والعنيفة والشرسة دوما. بل لا يبدو أن الإيمان بوجوده قد فرض نفي وجود الآلهة البدائيّة، فلم يكن الإله اليهوديّ ينفي وجود خصومه إنما كان يرفض أن يعبدهم شعبه معه. لقد كان يهوه إلها غيورا وكانت وصيّته الأولى هي الآتية: « أنا الرب إلهكَ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ».

لم يكن يهوه إذن سوى رسم أوّليّ للمثالية العصريّة، ماديّ وعديم الإتقان. ولم يكن أيضا غير إله قوميّ مثل الإله السلافّي الذي يعبده الضّباط الخاضعون لقيصر كل البلدان الروسيّة، ومثل الإله الألماني الذي ينادي به التقويّون والجنرالات الألمان الخاضعون لغليوم الأول ببرلين. إلا أن الكائن الأسمى لا يمكن أن يكون إلها قوميّا، بل يجب أن يكون إله الانسانيّة قاطبة، كما لا يمكن أن يكون كائنا ماديّا بل يجب أن يكون نفيا لكلّ مادّة، أي روحا صافيا. ولتحقيق ديانة الكائن الأسمى، وجب إذن أمران أوّلهما تحقيق للانسانيّة مثلما هي، بدحض القوميّات والمعتقدات المحليّة. وثانيهما تطوّر، قطع بعد أشواطا كبيرة، للأفكار الميتافيزيقية وذلك، لروحنة يهوه اليهود البدائي جدا.

وقد نفّذ الشرط الأول الرومان بطريقة سلبيّة جدا بلا شكّ لما غزوا أغلب البلدان المعروفة في القديم ودمّروا مؤسساتهم القوميّة، فاستطاع مذبح الإله الأوحد والأسمى أن يقام بفضلهم على أنقاض آلاف الهياكل الأخرى. أما آلهة الشعوب المهزومة فقد تجمّعت في البانتيون والتغت.

أما الشرط الثاني، أي رَوْحَنَةُ يهوه فقد نفّذه الإغريق قبل سقوط بلادهم تحت ضربات الرومان بكثير. وقد تلقت بلاد اليونان من الشرق، منذ مهدها التاريخي، عالما إلهيّا رسخ

نهائيا في إيمان شعوبها البدائي. وفي هذه المرحلة الغريزيّة السابقة لتاريخها السياسي، طوّرته وأنْسنتْهُ بشكل مدهش بواسطة شعرائها. فلما ابتدأ تاريخها الفعلّي، كان لها دين جاهز هو أعذب الديانات التي وجدت على وجه الأرض وأنبلها، وحتى الأكذوبة قد تكون نبيلة وعذبة. ووجد مفكّروها، ولم يكن لأي شعب مفكّرون أعظم من اليونان، العالم الالهي مُقاما، لا خارجهم فحسب أي في نفوس الشعب، بل داخلهم كذلك، يؤثر في مشاعرهم وتفكيرهم، فاتخذوه بالطبع نقطة انطلاق. ومن العظيم حقّا أنهم لم يؤسسوا علم لاهوت أبدا ليعانوا مشقّة التوفيق بين الفكر الناشئ وبين سخافات هذا الإله أو ذاك كما فعل الفلاسفة السكولاستيكيّون في القرون الوسطى. بل تركوا الآلهة بمنأى عن تأملاتهم، واهتمّوا مباشرة بالفكرة الإلهيّة، الخفيّة والقويّة والخالدة ومطلقة الروحيّة لا المشخّصة. لقد كان الميتافيزيقيّون الإغريق صانعي إله مسيحي أكثر من اليهود إذن، إذ لم يضف اليهود إلا شخصيّة إلههم يهوه القاسية.

وأن يقتنع عبقريّ جليل مثل أفلاطون العظيم كل الاقتناع بوجود الفكرة الالهيّة، هذا ما يبينّ لنا مدى عَدْوَى تقليد الجنون الديني ومدى جبروته. ويجب ألا نستغرب هذا الأمر لأن أكبر عبقريّ فلسفيّ وجد منذ أرسطو وأفلاطون، وأعني به هيقل Hegel ، بذل كلّ جهوده لينصّب الأفكار الإلهيّة فوق

عرشها السّامي والسماويّ من جديد، تلك الأفكار التي حطّم كانط kant موضوعيتها بواسطة نقد ناقص للأسف وماورائي جدّا. والحقّ أن هيقل باشر عمله الإحيائي ذاك بطريقة وقحة جدّا إلى حدّ أنه قتل الإله نهائيّا ونزع عن تلك الأفكار صبغتها الإلهية، مبيّنا للقارئ أنها لم تكن سوى خلق الذهن البشريّ الباحث عن ذاته عبرالتاريخ. ولم يكن ينقصه للقضاء نهائيا على الجنون الديني سوى النطق بعبارة كبيرة نطق بها بعده وفي نفس الوقت تقريبا، اثنان من ذوي أفذّ العقول دون أن يسمع أحدهما بالآخر أبدا وهما لودفيك فويرباخ Feuerbach تلميذ هيقل ومحطّمه، وأوقست كونت مؤسس الفلسفة الوضعيّة في فرنسا أما العبارة فهي الآتية: « إن الماورائيات تتلخّص في البسيكولوجيا » إذ لم تكن النظريات الميتافيزيقيّة كلها سوى نفسيّة البشر المتطوّرة عبر التاريخ.

ولم يعد من العسير أن نفهم الآن كيف ظهرت الأفكار الإلهيّة وكيف خلقتها ملكة الإنسان التجريديّة. ولكن هذه المعرفة كانت مستحيلة زمن أفلاطون. ولم يكن العقل الجماعي وبالتالي العقل الفردي ولو كان عقل أكبر العباقرة، حصيفا بما يكفي لإدراك ذلك، فاكتفى بأن يقول جاهدا صحبة سقراط: « اعرف نفسك بنفسك! » ومعرفة الذات هذه لم تكن توجد إلا في مستوى تجريديّ، أما في الواقع فكانت لاغية. ولذلك استحال على العقل البشريّ أن يشكّ

في كونه خالق العالم الإلهيّ الأوحد، فوجده أمامه، ووجده بمثابة التاريخ والشعور والعادة الفكريّة، وجعله بالضرورة موضوع أعمق تأمّلاته الفكريّة. وهكذا ولدت الميتافيزيقيا وتطوّرت الأفكار الالهيّة، أساس الرّوحانيّات وأتقنت.

وصحيح أنه وجدت بعد أفلاطون حركة معكوسة في التطوّر الفكريّ. فأرسطو، أب العلم والفلسفة الوضعيّة لم ينف أبدا وجود العالم الإلهيّ، لكنه لم يهتمّ به إلا نادرا. فكان أوّل من درس بطريقة تحليليّة وتجريبيّة المنطق وقوانين الفكر البشريّ والعالم المادّي في الآن نفسه، لا في جوهره المثالي الوهمي بل في جانبه الفعلّي. وأسّس بعده إغريق الإسكندريّة أوّل مدرسة للعلوم التجريبيّة. وقد كانوا ملحدين لكن إلحادهم لم يؤثر على معاصريهم. ونزع العلم إلى الانعزال عن الحياة أكثر فأكثر. أما نفي الأفكار الالهيّة الذي عبّر عنه الابيقوريّون والارتيابيّون، فلم يكن له أي تأثير على عامّة الناس.

وتأسّست مدرسة أخرى أبعد تأثيرا في الاسكندريّة، هي مدرسة الأفلاطونيين المحدثين. وقد مزج أتباعها بين خيالات الشرق البشعة وأفكار أفلاطون مزجا ملوّثا فكانوا بذلك الممهّدين الحقيقيين ومهيّئي المبادئ المسيحيّة.

هكذا إذن كانت أنانيّة يهوه الفظّة وسيطرة الرومان التي لا تقلّ عنها خشونة وفظاظة وتأمّلات الاغريق المثاليّة والماورائية التي مدَّاهـا الاتصال بالشرق، العناصر الثلاثة التي كوّنت ديانة المسيحيين الروحانية.

والإله الذي كان يعلو هكذا فوق اختلافات كل البلدان القوميّة والذي كان بشكل ما نفيها المباشر، من الضروريّ أن يكون كائنا لا ماديّا ومجرّدا. ولكن هذا الإيمان العسير بوجود كائن مماثل لم يظهر كما ذكرنا دفعة واحدة، بل هيّأت لظهوره وطـوّرتـه الميتافيزيقيا اليونانيّة طويلا، فكانت أوّل من طرح طرحا فلسفيّا مفهوم الفكرة الإلهيّة، ذلك النموذج المكرّر من قبـل العـالم المنـظور إلى ما لا نهاية له، لكن الألـوهيّة التي تصوّرتها الفلسفة اليونانية وخلقتها كانت مشخّصة. وبما أنه لا تستطيع أيّ ميتافيزيقيا منطقية وجديّة أن ترتفع أو بالأحرى أن تنزل إلى فكرة إله مشخّص، فقد وجب إذن تخيّل إله واحد ومشخّص إلى أبعـد الحـدود وُجد في شخص يهوه العنيف والأناني والقاسي إله اليهود القومي. ولكن اليهود، رغم هذا التفكير القومي المطلق الذي مازال يميّزهم إلى اليوم، صاروا أكثر الشعوب عالميّة في الأرض قبل ميلاد المسيح بكثير، فقد حُمل بعضهم أسرى، واندفع معظمهم وراء ولعهم الشديد بالتجارة، الذي يمثّل سمة من أهمّ سمات طبعهم، فانتشروا

في كلّ البلدان حاملين معهم إيمانهم بربّهم يهوه، الذي كانوا يزدادون له إخلاصا كلما تخلّى عنهم أكثر.

وفي الإسكندريّة تعرّف إله اليهود الرّهيب على ألوهيّة أفلاطون الميتافيزيقية التي أفسدها الاتصال بالشرق فأفسدها أكثر. ورغم قوميّته القطعيّة والغيورة والقاسية، لم يستطع مع مرور الوقت أن يصمد طويلا أمام لطافة ألوهيّة اليونان المثاليّة وغير المشخّصة فتزوّجها. ومن ذلك الزواج ولد إله المسيحيين الروحاني. لقد كان الأفلاطونيون المحدثون في الاسكندريّة مؤسّسي اللاهوت المسيحي الأساسيّين.

إلا أن اللاهوت لم يكن يمثل الديانة بعد، كما أن العناصر التاريخية لا تكفي لانشاء التاريخ، وما أقصد بالعناصر التاريخية هو الظروف العامّة لتطوّر فعلي ما كاحتلال الرومان للعالم مثلا، أو التقاء إله اليهود بألوهيّة اليونان المثاليّة. فلتلقيح العناصر التاريخية، ولجعلها تمرّ بسلسلة من التحوّلات، كان لابدّ من وقوع حدث حيّ وعفويّ لولاه، لكان من الممكن أن تبقى قرونا طويلة في حالة عناصر غير منتجة. ولم ينقص هذا الحدث المسيحيّة، فكان دعوة يسوع المسيح وشهادته وموته.

ولا نكاد نعرف شيئا عن هذه الشخصية. وكل ما ترويه الأناجيل حولها متضارب جدّا ومختلق إلى حدّ يجعلنا لا نمسك

ببعض التفاصيل الفعلية والحيّة إلا بعناء كبير. والأكيد هو أنه كان واعظ الشعب الفقير، وصديق البائسين والجاهلين والعبيد والنساء اللائي أحببنه حبّا كبيرا. وقد وعد كلّ من يتألمون في هذا العالم بالحياة الأبديّة وعددهم هائل جدا. وطبعا أعدمه ممثلو الأخلاق الرسميّة والنظام العامّ آنذاك. واستطاع تلاميذه وتلاميذهم أن ينتشروا في العالم، نتيجة لتحطّم الحدود القومية فنشروا الإنجيل في كلّ البلدان المعروفة قديما. وحيثما حلّوا، استقبلوا بالتهليل والترحاب من قبل العبيد والنساء، أي من قبل الطبقتين الأكثر اضطهادا والأشدّ تألّما والأكثر جهالة بالتالي في العالم القديم. وإن اكتسبوا أنصارا في عالم ذوي الامتيازات والمثقفين، فإن ذلك يرجع بنسبة كبيرة إلى تأثير النساء. لكن تبشيرهم على النطاق الواسع كاد ينحصر في طبقة البائسين الذين أرهقتهم العبوديّة، فكان ذلك أوّل ثورة مبدئيّة تقوم بها الطبقة الكادحة.

وشرف المسيحيّة الأكبر ومزيّتها التي لا تقبل المنازعة وسرّ نجاحها الغريب والشرعيّ هو اتّجاهها إلى جموع الناس المتألمين. أولئك الذين فرض عليهم العالم القديم خضوعا فكريّا وسياسيّا شرسا وشديدا ورفض تمكينهم من أبسط الحقوق الانسانيّة. والمبادئ التي بشّر بها تلاميذ المسيح، رغم مؤاساتها للمساكين، مثيرة للحنق وسخيفة جدّا من وجهة نظر

العقل البشريّ حتى يصدّقها أناس مستنيرون. وكم كان فرح بولس الرسول عظيما لما تحدّث عن « فضيحة الإيمان » وانتصار هذا الجنون الإلهي الذي رفضه أقوياء ذلك العصر وحكماؤهم وآمن به بكلّ شغف البسطاء والجاهلون والمغفّلون.

وفعلا. فقد كان ينبغي أن يتوفّر سخط شديد في الحياة، وعطش لاهب في القلوب، وبؤس يكاد يكون مطلقا في التفكير للتصديق بالسخافة المسيحيّة أفظع السّخافات إطلاقا.

فلم تكن نفيا لكل مؤسّسات العصور القديمة، السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة فحسب، بل انقلابًا شاملًا للحسّ المشترك بين كل العقول البشريّة إذ أصبح الكائن الحيّ والعالم الفعليّ يعتبران مثل العدم بينما يستريح نتاج ملكة الانسان التجريديّة في تأمّل فراغه وجموده المطلق ويعتبر هذا التجريد الخاوي والفراغ الكامل والعدم الحقيقي أي الإله، ويعلن أنه الكائن الفعليّ الوحيد والخالد والقدير. وهكذا! اعْتُبِرَ أن الكل الفعليّ هو اللّاشيء وأن اللاشيء المطلق هو الكلّ، وأصبح الظّلّ جسدا وامّحى الجسد كالظّلّ *.

---

* أعرف جيّدا أن مفهوم انعدام العالم الفعليّ لحساب عالم المثال والتجريد المطلق يوجد في المذاهب اللاهوتيّة والميتافيزيقية الشرقية

لقد تمّ هذا بجرأة وسخافة لا تجاريان فكان فضيحة الإيمان الحقيقيّة بالنسبة إلى الطبقات الشعبيّة، وانتصار الغباء المؤمن على العقل. أما بالنسبة إلى البعض فقد كان سخرية عقل متعب وفاسد وخائب الظنّ ومشمئزّ من البحث الأمين والجدّي عن الحقيقة، وحاجة إلى الانذهال والاختبال، تلك الحاجة التي نجدها في معظم الأحيان لدى العقول التي أضناها الضجر:

« أومن، لأن هذا غير معقول! ».

ولا أومن فقط باللامعقول، بل أومن به لأنه خاصّة وبالذات لا معقول، وبهذه الطريقة يؤمن اليوم كثير من ذوي العقول المتميّزة والمستنيرة بالجاذبيّة الحيوانية واستحضار الأرواح والطاولات الدائرة، ولماذا الابتعاد كثيرا؟ إنهم مازالوا يؤمنون بالمسيحيّة والمثاليّة والإله.

لقد كان إيمان بروليتاريا العصور القديمة تماما مثل بروليتاريا العصر الحديث قويّا وبسيطا. وقد اتجه التبشير المسيحيّ إلى قلبه لا إلى ذهنه، وإلى تطلّعاته الدائمة واحتياجاته وآلامه وعبوديته لا إلى عقله الذي لم يفق من سباته

= وخاصة في الهند بما فيها البوذيّة إلا أنه لا ينطوي على النفي الاختياري والمتروّي الذي يميّز المسيحيّة. ولم يكن عالم الفكر البشري والارادة والحريّة قد تطوّر بعد لما أنشئت هذه المذاهب كما حدث فيما بعد في الحضارتين الإغريقية والرومانية - (تعليق باكونين).

لكي يدرك أن التناقضات المنطقية التي تجسّمها البداهة، واللامعقول لا يمكن أن توجد. والمسألة الوحيدة التي كانت تهمّه هي متى تدقّ ساعة الخلاص الموعود ومتى يأتي ملكوت السماوات أما المبادئ اللاهوتية فلم تكن تشغله لأنه لم يكن يفهم منها شيئا. لقد كان البروليتاريا المؤمن بالمسيحيّة يمثّل قوّتها الماديّة لا تفكيرها النظري.

وأما المبادئ المسيحيّة فقد أعدّها خاصّة الأفلاطونيون المحدثون المؤمنون في الشرق في سلسلة من الأعمال اللاهوتيّة والأدبية وفي المجامع الدينيّة. وقد نزل الفكر اليوناني إلى مستوى وضيع جدّا إلى حدّ أنه وقع في القرن الرابع من العهد المسيحيّ، زمن المَجْمَع الديني الأوّل، قبول فكرة إله مشخّص وروح خالص وخالد ومطلق وخالق وسيّد أعلى، بإجماع آباء الكنيسة كلّهم. ومنذئذ أصبح الإيمان ضروريّا بلامادية وبخلود الروح البشريّ الساكن والحبيس في جسم فان جزئيا فحسب، لأنه يوجد في ذلك الجسد بالذات، جزء خالد مثل الروح رغم كونه جسمانيّا، لأنه يجب أن يبعث معه. وهذا يدلّ على أنه كان من الصعب جدّا تصوّر روح خالص بمعزل عن أي شكل جسديّ ولو من قبل آباء الكنيسة.

وما يجب أن نلاحظه هو أن خاصيّة كلّ استدلال ميتافيزيقي هي عموما محاولة تفسير لا معقوليّة بأخرى.

ومن حسن حظّ المسيحية أنها التقت بعالم العبيد. كما أنها عرفت سعادة أخرى هي اجتياح البرابرة لأوروبّا. وقد كان هؤلاء أناسا طيّبين يفيضون بالقوّة، ومدفوعين خاصّة بطاقة حياتيّة كبرى. لقد كانوا قطّاع طرق أصيلين قادرين على إتلاف كل شيء وابتلاعه تماما مثل ورثتهم الألمان الحاليّين. إلا أنهم كانوا أقلّ منهم نظاما وتحذلقا وأقلّ أخلاقيّة وعلما وبالمقابل أكثر استقلالا وأنفة، قادرين على نيل العلم وغير عاجزين عن الحريّة كما يعجز عنها برجوازيّو ألمانيا الحديثة. ورغم خصالهم الكثيرة، لم يكونوا الا برابرة أي أناسا غير مكترثين بقضايا اللاهوت والميتافيزيقيا كلها، تماما مثل عبيد العصور القديمة الذين كانت تنحدر أعداد هائلة منهم من تلك الشعوب. لذلك لم يكن من العسير هديهم للمسيحيّة نظريّا بعد قهر نفورهم العمليّ.

وقد استطاعت المسيحيّة لمدّة عشرة قرون أن تفسد العقل الأوروبي وتوهنه وتضلّه، متسلّحة بجبروت الكنيسة والدولة دون أن تلقى أيّ منافسة. ولم يكن ثمّة منافسون لأنه لم يكن ثمّة خارج الكنيسة مفكرون ولا مثقّفون. فهي التي كانت تفكّر وتتكلّم، وهي التي كانت تكتب وتعلّم. وإن برزت داخلها بدع، فلم تكن تهاجم دوما سوى التطوّرات اللاهوتية والعمليّة للعقيدة الأساسيّة، لا العقيدة بالذات وهكذا كان يبقى الإيمان بالإله الروح الخالص وخالق العوالم، والاعتقاد

بخلود الـروح بعيدا عن كل هجوم. وأصبح هذا الاعتقاد المزدوج، الأساس المثالّي للحضارة الأروبية الغربيّة والشرقيّة بأكملهـا، ونفذ إلى كلّ المؤسسات وإلى كل تفاصيل الحياة العامّة والخاصّة للطبقات المغلقة، والشعبيّة، وتجسّد فيها.

فهل نستغرب بعد هذا من بقاء هذا المعتقد إلى يومنا هذا ومـواصلتـه تأثـيره المفجـع على عقول النخبة أمثال ماتسيني وميشلي Michelet وكيني Quinet وآخرين كثيرين ؟ وقد رأينا أن الهجوم الأول الذي شُنّ عليه، كان من قبل نهضة التفكير الحرّ في القرن الخامس عشر، تلك النهضة التي بذلت أبطالا وضحايا مثل فانيني Vanini وجيوردانو برونو Giordano Bruno وقـاليلي Galilée . والتي رغم تضييق الأنفـاس الذي سلّطه عليهـا صخب الاصـلاح الـديني وجلبته، واصلت عملها الخفيّ في صمت مورّثة لأنبل العقول في كل جيل، ما صنعته من أجل التحرّر البشري بتحطيم كل السخافات اللامعقولة حتى سطعت من جديد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لترفع بكلّ جسارة راية الإلحاد والماديّة.

وقـد ظُنّ إذن أن العقل البشري سيتحرّر أخيرا من كلّ الـوسـاوس الإلهيّة فكان هذا الظنّ خطأ، لأن الكذبة التي خدعت الانسانية لمدّة ثمانية عشر قرنا (إذا قصرنا الحديث عن المسيحيّة). أظهرت مرّة أخرى أنها أقوى من الحقيقة.

وبما أنها لم تعد تستطيع استخدام الغربان السوداء الذين كرّستهم الكنيسة، والكهّان الكاثوليك أو البروتستانتيّين الذين فقدوا كل مصداقيّة، استخدمت الكهّان اللائكيّين الكذّابين والسَّفْسَطِيّين ذوي الأثواب القصيرة. وكُلِّفَ بالمهمّة الأساسيّة رجلان رهيبان، أحدهما صاحب أشدّ الأذهان زيغا والآخر صاحب أكثر الإرادات المذهبيّة استبدادا في القرن الماضي وهما جان جاك روسّو J.J. Rousseau و روبسبيير Robespierre .

كان الأول النموذج الفعلّي لقصر النظر والحقارة المتشككة والتمجيد الذي لا يقصد به غير شخصه والحماس البارد، ونفاق بهتان المثاليّة المعاصرة العاطفي والشّرس في الآن نفسه. ويمكن اعتباره صانع الردّة الفعلّي. ورغم أنه كان في الظاهر، الكاتب الأكثر ديمقراطيّة في القرن الثامن عشر، فقد كان يخفي داخله استبداد رجل الدولة القاسي، كما كان الرسول المبشر بالدولة العقديّة التي أراد روبسبيير، تلميذه الخليق به والوفّي له أن يكون كاهنها الأكبر. ولما سمع روسّو، فولتير يقول : « لو لم يكن الإله موجودا، لوجب خلقه ». خلق الكائن الأسمى وإله الألهانيّين * المجرّد والعقيم. وباسم الكائن الأسمى، وباسم الفضيلة المرائية التي أمر بها، أعدم

---

* ينتمي إلى مذهب التأليهيّة الذي يقرّ بوجود الإله وينكر الوحي والآخرة.

روبسبير الهِيبْرتِيِّين في أوّل الأمر ثم عبقريّ الثورة بالذات دانتون Danton الذي قتل في شخصه الجمهوريّة ليمهّد لِانتصار الديكتاتوريّة النابليونيّة، الذي أمسى أمرا ضروريّا. وبعد التراجع الكبير بحثت الرجعيّة المثاليّة، ووجدت خادمين أقلّ تعصّبا وإرهابا يناسبون حجم البرجوازيّة الحاليّة المتقلّص، فكانوا في فرنسا شاتوبريان Chateaubriand ولامارتين Lamartine وهل يجب أن أذكر فيكتور هيقو Victor Hugo ، ديمقراطيّ اليوم والجمهوريّ الذي يكاد يكون اشتراكيّا ؟ ومن ورائهم كل الزمرة الحزينة والعاطفية من ذوي الأذهان الهزيلة والشاحبة التي كوّنت تحت إشراف أولئك المعلّمين، المدرسة الرومنطيقية الحديثة. أما في ألمانيا، فقد كانوا أمثال شليقل Schlegel وتيك Tieck ونوفاليس Novalis وفيرنر Werner وعديد من الأسماء الأخرى التي لا تستحقّ حتى أن يذكّر بها.

لقد كان الأدب الذي أنشأته تلك المدرسة، سيطرة الخيالات والأشباح، فلم يكن يحتمل ضوء النهار ولا يمكنه العيش إلا بين الضّياء والظلال، ولم يكن يحتمل أيضا الاتصال بطبقات الشعب، فكان أدب الأرستقراطيين الرقيقين والمتميّزين الذين يتطلّعون إلى السماء، وظنهم، ويعيشون في الأرض كالمرغمين على ذلك. وكانت هذه المدرسة تشمئز من السياسة، وقضايا الساعة وتحتقرها. ولكن

إن حدث لها أن تخوض في الحديث عنها صُدفة، تظهر رجعيّتها وتنحاز علنا إلى الكنيسة ضدّ وقاحة المفكّرين الأحرار، وتقف في صفّ الملوك ضدّ الشعوب، وتتشيّع لكلّ الارستقراطيين ضدّ أوغاد الشوارع الحقيرين.

وما كان غالبا على هذه المدرسة كما ذكرنا، هو لا مبالاة تكاد تكون كاملة بالسياسة. ولم يكن من الممكن غير تمييز نقطتين فعليتين بين تلك السّحب التي كانت تعيش بينها وهما التطوّر السريع للمادّية البرجوازيّة والهيجان الجامح للغرور الشخصيّ.

ولفهم هذا الأدب الرومنطيقي، يجب البحث عن علّة الوجود داخل التحوّل الذي شهدته الطبقة البرجوازية منذ ثورة 1793.

فقد كانت البرجوازية البطل وممثّل عبقرية التاريخ الثوريّة منذ النهضة والاصلاح حتى الثورة. وإن لم يكن هذا في ألمانيا، ففي إيطاليا وفرنسا وسويسرا وأنقلترا وهولاندا. ومنها انبثق معظم المفكرين الأحرار في القرن الثامن عشر والمصلحون الدينيّون في القرنين اللذين سبقاه، ورسل التحرير البشريّ، وهذا في ألمانيا القرن الماضي فقط. وهي فقط التي قامت بثورتي 1789 و 1793 مستندة طبعا إلى ساعد الشعب الجبّار الذي كان يثق بها، فأعلنت سقوط

الملكيّة والكنيسة وأخوّة الشعب وحقوق الانسان، وهذه هي ألقاب مجدها. إنها ألقاب خالدة.

إلا أنها سرعان ما انقسمت، فأثرى قسم هامّ من مُقتني الأموال العموميّة. وتخلّوا عن بروليتاريا المدن وبحثوا عن دعم معظم الفلاحين الذين أصبحوا بدورهم مالكي أرض، وصار همهم الوحيد استتباب الأمن، وعودة النظام العامّ وتكوين حكومة قويّة ومنظّمة، فاستقبلوا بفرح ديكتاتوريّة نابليون بونابرت الأول، ولم يستقبحوا رغم بقائهم فولتيريّين، المعاهدة البابويّة وإعادة الكنيسة الرسميّة في فرنسا، فـ « الدين ضروريّ للشعب » ا وهذا يعني أن ذلك القسم من البرجوازيّة شبعوا وبدؤوا يفهمون أنه يجب عليهم مخادعة جوع الشعب الذي لم يشبع بوعود مَنٍّ * سماويّ للحفاظ على وضعيتهم ومكتسباتهم الجديدة وعندها انبرى يبشّر شاتوبريان *.

---

* طعام عجائبيّ أنزل على بني إسرائيل.

* أظن أنه من المفيد التذكير هنا بطرفة معروفة جدا على كل حال وصحيحة جدا تسلّط ضوءا ساطعا على القيمة الفعلية لمنعشي المعتقدات الكاثوليكيّة أولئك، وعلى سلامة الطويّة الدينيّة لذلك العصر فقد اقترح شاتوبريان على أحد الناشرين كتابا موجّها ضدّ الايمان فوضّح له الناشر أن الإلحاد لم يعد مطابقا لذوق العصر وأن جمهور القرّاء لم يعد راغبا فيه. وصار يقبل على الكتب الدينية. فانصرف شاتوبريان وعاد بعد بضعة أشهر يحمل إليه كتابه « عبقريّة المسيحيّة » - (تعليق باكونين).

وسقط نابليون. وعـادت الملكيّة الشرعيّة وعاد معها إلى فرنسا سيطرة الكنيسة والارستقراطية النبيلة. فاستعادتا من جديد القسم الأكـبر من تأثيرهما القديم حتى أتت الفرصة المناسبة لاسترجاع الكلّ.

وألقت هذه العودة بالبرجوازيّة من جديد في الثورة، فأفاق إلى جانب العقل الثوري فيها، عدم الإيمان. وعاد ذهنها فذّا من جديد، فطرحت شاتـوبـريان جانبـا وأقبلت على فولتير تطالعه ثانية، لكنها لم تبلغ ديدرو Diderot وذلك لأن أعصابها التي وهنت، لم تعـد تقـوى على احتمال غذاء في مثل ذلك الثراء. أما فولتير ذلك الذهن الفذّ والألماني في نفس الوقت، فقد كان يلائمها جيّدا.

وقـد عبّر بيرانجي Béranger وكوريي P.L. Courier عن هذه النزعة الجديدة بالوجه الأكمل، وصار إله « الناس الطيّبين » ومثـال الملك الـبرجـوازي الليبرالي والـديمقـراطي في نفس الـوقت، المرسومان على الخلفيّة الفخمة للوحة الانتصارات الامـبراطوريّة الضخمة التي لم تعد تؤذي شيئا، هما اللذان يمثّلان الصورة التي رسمتها البرجوازيّة لحكومة المجتمع. أما لامارتين، المدفوع برغبة الارتقاء إلى المنزلة الشعريّة التي بلغها بيرون Byron العظيم، فقد بدأ ينظم تراتيله المتغنّية بكل برودة بإلـه النبـلاء والملكيّة الشرعيّة، لكن تسـابيحه لم يكن يرنّ

صداها إلا في صالـونات الأرستقراطية. أما البرجوازيّة فلم تكن تسمعها. لقد كان بيرانجي شاعرها وكوريي كاتبها السياسيّ.

وكـانت نتيجـة ثورة جويلية، تنبيل الذوق البرجوازي. ونعـرف أن كلّ برجـوازي في فرنسـا يحمـل داخله النموذج الدائم، لـ «البرجوازيّ النبيل» الذي لا يتخلّف عن الظهور كلما حاز حامله الثروة والقوّة. وعوّضت البرجوازيّة الثريّة نهائيّا عام 1830 طبقة النبلاء القديمة التي في الحكم. ونزعت إلى تكوين ارستقراطية جديدة، أرستقراطية رأس المال قبل كل شيء، لكنهـا على كل حال متميّزة ومفعمة باللياقة والأدب وبالأحاسيس الرقيقة. وسرعان ما صارت تشعر بالتقوى.

ولم يكــن هذا من قبـلهــا مجرّد تقـليد أخــرق لآداب الأرستقراطيّة بل كان كذلك ضرورة تحتّمها الوضعيّة، وقد قدّم لها الـبروليتاريا خدمة أخيرة لما ساعدها مرّة أخرى على الاطاحة بطبقة النبلاء. ولم تعد البرجوازيّة تشعر بالحاجة إلى تلك المسـاعـدة لأنها أحسّت نفسهـا تجلس بثبـات في ظلّ «عرش جويلية». وبدأ يضايقها التحالف مع الشعب الذي صار عديم الجدوى، فكان من الواجب إعادته إلى موضعه. ولم يتمّ هذا طبعـا دون إثـارة سخط شديد لدى الـطبقات الشعبيّة، فصـار من الضروريّ إخماد غضبها، ولكن باسم

ماذا ؟ فلو تمّ ذلـك باسم المصلحة البرجوازيّة المعترف بها، بكل فظاظة لكان أمرا شديد الوقاحة. وكلّما كانت المصلحة غير عادلـة ولا إنسـانيّة، استلزمت العقاب. فباسم الدين إذن، ذلـك الحامي الطيّب لكلّ الشبعين والمؤاسي الصالح لكلّ الجائعين. وعندئذ فهمت البرجوازيّة كم الدين ضروريّ للشعب أكثر من أي وقت مضى.

وبعـد أن كسبت ألقـاب مجدهـا كلّها بالمعارضة الدينيّة والفلسفيّة والسياسيّة، وبالاحتجاج والثورة، أمست في نهاية الأمـر الـطبقـة المسيطرة، وحـامية الـدولة، والمدافعة عن تلك المؤسسة المستمدّة نظامها من قوّة تلك الطبقة. فالدولة هي القوّة، ولها قبل كل شيء حقّ القوة والمنطق المنتصر بالحراب والبنـادق. لكن هذا المنطق رغم بلاغته، لا يكفي بمفرده لإقنـاع الإنسـان مع مرور الزمن، لذلك كان من الواجب البحث عن إقرار أخلاقيّ يفرض عليه الاحترام، وعلى هذا الإقرار أن يكون شديد البساطة والبداهة في الآن نفسه حتى يقنع طبقات الشعب التي أخضعتها قوّة الدولة، بالاعتراف لها أخلاقيا بذلك الحق.

ولا يوجد غير وسيلتين لاقناعها بصلاح مؤسسة اجتماعية ما. أولاهما فعليّة بحقّ، لكنها عسيرة التحقيق لأنها تؤدّي إلى إلغاء الدولة، أي إلى إلغاء الاستغلال المنظّم سياسيّا للأغلبيّة

من قبـل بعض الأقليّات. وتتمثـل في إشبـاع مبـاشر وتـامّ لحاجات الشعب وطموحاته كلّها، وهذا يساوي القضاء على الطبقة البرجوازيّة وإلغاء الدولة مرّة أخرى فلا داعي للتحدّث في هذا إذن. أما الوسيلة الثانية المضّرة بالشعب والثمينة جدّا بالنسبة إلى مصالح الامتيازات البرجوازيّة فهي الدين. إنها السراب الأبديّ الذي تنقاد وراءه طبقات الشعب باحثة عن الكنـوز الإلهيّة، بينما تكتفي الطبقة الحاكمة الماكرة باقتسام خيرات الأرض البائسة وأشلاء الشعب بما فيها طبعا حرّيته السياسيّة والاجتماعيّة، قسمة ضيزى مقدّمة أكثر لمن يملك أكثر.

لا توجد ولا يمكن أن توجد دولة بغير ديانة. ولنأخذ مثلا أكثـرهـا تحرّرا في العـالم أي الولايات المتّحدة الأمريكية أو الاتّحـاد السـويسري، لنقف على الـدور الهـام الذي تلعبه العناية الإلهية، أي إقرار كل الدول، الأعلى في الخطابات الرسمية.

ولهذا، كلما تحدّث زعيم دولة سواء كان امبراطور ألمانيا، أو رئيس جمهورية ما عن الإله، لنكن على يقين بأنه يستعدّ مرّة أخرى لجزّ شعبه القطيع.

ولما كانت البرجوازية الفرنسيّة الليبيراليّة والفولتيريّة مدفوعة بطبعها إلى وضعيّة (حتى لا نقول إلى ماديّة) ضيّقة وقاسية،

وصارت الطبقة الحاكمة بانتصارها سنة 1830 فقد وجب على الدولة أن تتّخذ لنفسها دينـا رسميّا لكن الأمر لم يكن هيّنا لأن الـبرجـوازية لم تعـد تستطيع أن تسكن من جديد تحت نير الكـاثـوليكية الرومانيّة فبينها وبين كنيسة روما هوّة من الدم والضغينـة. ومهما باتت رزينة ونفعيّة فلن تستطيع أن تخمد نزعـة طوّرها التاريخ داخلها. ولو عاد البرجوازي الفرنسي للكنيسـة ليشـارك في طقوسها الورعة ـ وذلك شرط أساسيّ لتوبته النصـوح، لجعـل نفسـه مسخـرة. وقد حاول ذلك كثيرون، لكن نتيجة بطولاتهم لم تكن سوى فضائح عقيمة. وخلاصة القول أن العودة إلى الكاثوليكيّة كانت أمرا مستحيلا بسبب التناقض الكبير بين سياسة روما الثابتة وتغيّر مصالح الطبقة الوسطى الاقتصادية والسياسيّة.

والـبروتستانتيّة في هذا المجال ملائمة أكثر، فهي الديانة البرجوازية المثلى، توفّر الحريّة بالقدر المناسب للبرجوازيّ وتوفّق بين التـطلعـات السـماويّة والاحترام الذي تستدعيه المصالح الأرضيّة. لذلـك ازدهـرت التجـارة والصنـاعـة في البلدان البروتستانتيّة خاصّة.

إلا أن دخول البرجوازيّة الفرنسية في البروتستانتيّة كان أمرا مستحيلا لأن الانتقال الجدّي من ديانة لأخرى يتطلّب قدرا ولو ضئيلا من الايمان، إلا إذا تمّ ذلك لغاية حسابيّة في نفس

يعقوب، كما يفعل يهود روسيا وبولونيا الذين يتنصّرون ثلاث مرّات أو أربعــا ليحصلوا على نفس العـدد من المكـافـآت المخصّصة لذلك. لكن قلب البرجوازيّ الفرنسي وضعيّ لا مكان فيه للإيمان، ولا يعبأ صاحبه البتّة بالقضايا التي لا تمسّ كيس نقوده أوّلا وغروره الاجتماعي بعد ذلك.

لم يكن ذلـك الـبرجـوازي مُبـاليًا لا بالبروتستانتيّة ولا بالكاثوليكيّة ولم يكن يستطيع من جهة أخرى أن ينتقل إلى الـبروتستـانتيّة دون أن يقـع في تناقض مع روتينيّة الأغلبيّة المسيحيّة، ولو فعل، لكان هذا خطأ كبيرا ترتكبه طبقة تطمح لحكم الشعب بأكمله.

وبقي لها حلّ يتمثّل في العودة إلى ديانة القرن الثامن عشر الانسـانيّة والثـوريّة، لكن هذا كان سيأخذها بعيدا جدّا. وهكذا وجدت نفسها مرغمة، لإقرار دولتها على خلق ديانة جديدة اعتنقتهـا الـطبقـة الـبرجـوازية بأكملها دون مهازل وفضائح كبيرة.

وهكذا ظهرت التأليهيّة العقدِيّة.

وقد بيّن آخرون تبيينا يفوق ما استطيع، تاريخ نشأة هـــذه المدرسة وتطوّرها التي كان لها تأثير حاسم ومضرّ جدا على تربية الشباب البرجوازي السياسيّة والفكريّة والأخلاقية في فرنسا. وتعود جذورها إلى بنيامين كونستان Benjamin Constant ومدام

دي ستال Mme De Staël أما مؤسسها الحقيقي فقد كان روايّي كولاّر Royer Collard أما رسلها المبشّرون بها فـ : قيزو Guizot وكـوزان Cousin وفيلّومـان Villemain وآخـرون كثيرون ، وأما غايتها الشريفة فكانت التوفيق بين الثورة والردّة ، ولنستعمل لغـة تلك المدرسة نقول بين مفهوم الحريّة ومفهوم السلطة ، لصالح هذا الأخير طبعا .

وقد كان هذا التوفيق يعني سياسيّا اختفاء الحريّة الشعبيّة لصالح السيطرة البرجوازيّة التي تمثّلها دولة الملكيّة الدستوريّة ، وأمـا فلسفيّا فيعني خضـوعـا متروّيا من العقل الحرّ لمفاهيم الإيمان الأبديّة .

ونعلم أنه قد وقع التهيئة لها من قبل السيّد كوزان خاصّة ، زعيم الإيلكتيكيّة الفـرنسيّة ، ذلـك الخطيب السطحّي والمتحـذلق ، العـاجز عن أي تصوّر طريف أو تفكير ذاتيّ ، والقدير في ميدان الأفكار المبتذلة التي كان يخلط بينها وبين العقـل السليم . لقـد أعـدّ ذلـك الفيلسوف الشهير، بكلّ مهـارة ، للشبـاب المجتهـد طبخـة ميتـافيزيقيّة من صنعه ، سرعان ما فُرض استخدامها في مدارس الدولة كلها . الخاضعة للجامعة ، فكان ذلك طعاما عسير الهضم حُكِمَ بتناوله على أجيال كثيرة .

"كُمُّونَةُ باريس
ومفهـوم الدولــة"

لقد ولد هذا العمل، ككلّ المؤلفات القليلة التي نشرتها إلى حدّ الآن من الأحداث. وهو مواصلة طبيعيّة لمؤلَّفي « رسائل إلى فرنسي » (سبتمبر 1870) حصل لي فيه الشرف اليسير والحزين بالتنبّؤ وتوقّع الويلات الرهيبة التي تضرب اليوم فرنسا وكلّ العالم المتحضّر معها. هذه الآلام التي لم يكن لها ولم يبق لها الآن كذلك سوى علاج وحيد هو : الثورة الاشتراكية.

والغاية من تأليف هذا العمل هي إثبات هذه الحقيقة الأكيدة بواسطة تطوّر المجتمع التاريخي، وبالأحداث التي تقع أمام أعيننا في أوروبّا حتى يُقِرَّ بهَا كل الناس الصادقين، وكل الباحثين المخلصين عن الحقيقة، وهي عرض المفاهيم الفلسفيّة والغايات العمليّة التي تمثّل الروح الفاعل وأساس ما نسميه بالثورة الاشتراكية وهدفها، عرضا ليس فيه تكتّم ولا غموض.

وما المهمة التي رسمتها لنفسي بيسيرة، فأنا أعلم هذا وقد أُتّهمُ بالعُجب لو وضعت في هذا العمل أدنى تباهٍ شخصيّ. ولكن أستطيع أن أطمئن القارئ بأن الأمر خالٍ من كل هذا، فأنا لست عالما ولا فيلسوفا ولا حتى كاتبا محترفا. لم أكتب في حياتي إلا قليلا، وما فعلت ذلك إلا مرغما، أي كلما كنت

مدفوعا باقتناع منفعل يحملني على مغالبة نفوري الغريزي من إظهار ذاتي أمام العموم.

فمن أكون يا ترى، وما الذي يدفعني الآن لنشر هذا العمل؟ أنا هائم بالبحث عن الحقيقة وعدوّ لدود للأوهام المضّرة التي تطمح التنظيمات الرهبانيّة ذات الامتيازات، والمنتفعة، والممثّلة الرسمية لكلّ الخساسات الدينيّة والميتافيزيقيّة والسياسيّة والقضائيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة الحاضرة والماضية، إلى مواصلة استخدامها لغاية تبليه العالم واستعباده. أنا عاشق مجنون للحريّة وأعتبرها المجال الأوحد الذي يمكن أن يتفتّق فيه ويترعرع ذكاء البشر وكرامتهم وازدهارهم. وليس حديثي هنا عن تلك الحريّة الشكليّة الممنوحة والمقيسة والمقنّنة من قبل الدولة، تلك الكذبة الأبديّة التي لا تمثّل شيئا في الواقع، ماعدا مصالح البعض المبنيّة على استعباد العالم بأكمله، ولا عن تلك الحريّة الفرديّة والأنانيّة والدينيّة والوهميّة التي بشّرت بها مدرسة جان جاك روسو وكل مدارس الليبيراليّة البرجوازيّة الأخرى، والتي تعتبر أن حقّ كل الناس المزعوم، الممثل من قبل الدولة، هو حدّ حقّ كلّ إنسان، وهذا يؤدي حتما ودوما إلى جعل حقّ كل انسان يساوي صفرا، بل أقصد به الحريّة الجديرة وحدها بذلك الاسم، والمتمثلة في التطور الأكمل لكل القوى الماديّة والفكريّة والأخلاقية التي توجد في شكل ملكاتٍ خفيّة داخل

كل فرد، أي الحريّة التي لا تعترف بحدود غير التي تسطّرها لنا قوانين طبيعتنا الذاتيّة. وهذا يعني أنه لا حدود لها، لأن تلك القوانين لم يفرضها علينا أي مشّرع من الخارج، موجود سواء بجانبنا أو فوقنا، بل هي متأصّلة فينا وملازمة لنا ومكوّنة لأساس ذاتنا الماديّة والذهنيّة والأخلاقية. وعوض أن نبحث عن حدٍّ لها، يجب أن نعتبرها شروط حريّتنا الفعليّة وعلّتها الأصليّة.

وأقصد به حريّة كل الأفراد، التي عوض أن تقف كالحدّ في وجه حريّة الغير، تجد فيها على عكس ذلك تدعيمها وامتدادها إلى ما لا نهاية له، أي حريّة كل فرد اللامحدودة بحرية الجميع، والحريّة التي بالتضامن وفي المساواة، الحريّة المنتصرة على القوة القاسية لمفهوم السلطة التي لم تكن إلا التجسيم الأمثل لتلك القوّة، الحريّة التي ستؤسّس، بعد الإطاحة بكلّ الأوثان السماويّة والأرضيّة، وتنظّم عالما جديدا هو عالم الإنسانيّة المتعاونة، على أنقاض الكنائس والحكومات كلّها.

أنا نصير مقتنع للمساواة الاقتصاديّة والاجتماعية لأني أعرف أن حريّة البشر وعدالتهم وكرامتهم، وأخلاقيّة الأفراد ورفاهيتهم، وازدهار الشعوب كذلك، لن تكون خارج هذه المساواة سوى أباطيل. وبما أني نصير الحريّة التي هي أول شروط الإنسانية، أعتقد أنه يجب أن تتحقق الحريّة في العالم

بواسطة تنظيم تلقائي لعمل الرابطات المنتجة، المنظّمة بكل حريّة والمتحدة داخل «كمّونات»، ولملكيتها المشتركة، وبواسطة تجمّع الكمّونات بكلّ تلقائيّة كذلك داخل نظام فدرالّي، لا بواسطة عمل الدولة الأسمى والوصيّ.

وعند هذه النقطة يفترق جوهريّا الاشتراكيون الثوريّون، والشيوعيّون الاستبداديّون المناصرون لمبادرة الدولة المطلقة. فهدفهم واحد، إذ يريد هؤلاء وأولئك إنشاء نظام اجتماعيّ جديد، مؤسّس على تنظيم العمل المشترك فحسب، وتفرضه قوّة الأحداث على الفرد وعلى الجماعة بأوضاع اقتصاديّة متساوية للجميع، وامتلاك مشترك لوسائل العمل.

إلا أن الشيوعيّين يتخيّلون أنهم قادرون على بلوغ ذلك بتطوير وتنظيم قوّة الطبقات الكادحة السياسيّة وخاصّة بروليتاريا المدن من بينها بمساعدة الراديكاليّة البرجوازيّة، بينما يعتقد الاشتراكيّون الثوريّون، أعداء كلّ مزيج أو تحالف ملتبس أنه لا يمكن تحقيق هذا الهدف إلا بتطوير وتنظيم القوّة الاجتماعيّة لا السياسيّة لكل الطبقات الكادحة في المدن والأرياف على حدّ السواء بالإضافة إلى كلّ ذوي النوايا الحسنة من كلّ الطبقات الأخرى الذين يودّون الانضمام إليهم بكل صدق، والموافقة على كامل برامجهم بعد تحرّرهم نهائيا من ماضيهم.

ومن هنا تبرز طريقتان مختلفتان، فبينما يظنّ الشيوعيّون أنه يجب تنظيم القوى العماليّة لافتكاك قوّة الحكومات السياسيّة، ينتظم الاشتراكيون الثوريّون لغاية تحطيم، أو بعبارة ألطف، لغاية إلغاء الحكومات، فالشيوعيون مناصرو مفهوم السلطة وتطبيقها، بينما لا يثق الاشتراكيون الثوريون في غير الحريّة. ويتفق هؤلاء وأولئك على الإيمان بالعلم الذي ينبغي أن يقتل الخرافات ويعوّض المعتقدات، لكن يريد الأولون فرضه، بينما يبذل الآخرون جهدهم لنشره، حتى تنتظم الجماعات البشريّة المقتنعة، بكل حريّة وتلقائية داخل اتحادات فدراليّة من تحت إلى فوق، نتيجة لحركتها الذاتيّة ومطابقةً لمصالحهم الفعليّة. ولكن لن يكون هذا بواسطة تخطيط مسطّر مسبّقا، ومفروض على الطبقات غير المتعلّمة من قِبل بعض العقول المتفوّقة.

ويعتقد الاشتراكيون الثوريّون أن الذكاء العمليّ والنباهة، الموجودَيْن في تطلّعات الطبقات الشعبيّة، الغريزيّة وفي حاجاتها الفعليّة يفوقان كل ما في عقول أولئك الدكاترة والأوصياء على الإنسانية الذين مازالوا، رغم المحاولات الخائبة لإسعادها، يريدون بذل جهودهم في سبيل ذلك، في حين يرى الاشتراكيّون الثوريّون أن الإنسانيّة خضعت طويلا للحكم، وأن سبب شقائها ليس في هذا الشكل من الحكم أو ذاك، بل يكمن في مفهوم الحكم بالذات وفي عمله مهما كان نوعه.

إنه التناقض التاريخيّ بين الشيوعيّة العلميّة التي طوّرتها المدرسة الألمانيّة، وأقرّها إلى حدّ ما الاشتراكيون الأمريكيون والانقليز من جهة، وبين البرودونيّة التي طُوّرت إلى حدّ نتائجها القُصوى وأقرّها بروليتاريا البلدان اللاتينية *.

وقد قامت الاشتراكية الثوريّة أخيرا بمحاولة باهرة وعمليّة تجلّت في كُمونة باريس.

أنا مناصر لكمّونة باريس التي زادها خنقها من قِبل جلّادي الرّدّة الملكيّة والكنسيّة رسوخا وقوّة في خيال بروليتاريا أوروبّا وقلبه، وأنا نصيرها لأنها كانت بالخصوص رفضا جريئا وصريحا للدّولة.

وإنه لحدث تاريخي عظيم أن تمّ هذا الرفض في فرنسا بالذات، فرنسا التي كانت إلى حدّ اليوم بلاد التمركز السياسي، وأن قامت به باريس بالذات، باريس رأس هذه الحضارة الفرنسيّة الكبيرة وصانعتها التاريخيّة. باريس التي خلعت تاجها بنفسها وأعلنت بكل حماس سقوطها لتهب الحريّة والحياة لفرنسا وأوروبّا والعالم بأكمله. باريس التي أكّدت من جديد قوّة مبادرتها التاريخيّة مسطّرة لكل شعوب العبيد (وهل ثمّة الا طبقات شعبيّة مُسْتَرَقّة ؟) درب التحرّر

---

* أقرتها كذلك وستزيد، الغريزة اللاسياسيّة الموجودة في الشعوب السلافية ـ (تعليق باكونين).

والخلاص الأوحد. باريس التي أصابت من تقاليد الرادِيكاليّة البرجوازيّة السياسيّة مقتلا مُرسية أسُسًا حقيقية للاشتراكية الثوريّة. باريس التي استحقّت مرّة أخرى لعنات كلّ رجعيّي فرنسا وأوروبّا. باريس التي دفنت نفسها تحت أنقاضها لتكذّب الردّة المنتصرة تكذيبا علنيّا، منقذة بنكبتها شرف فرنسا ومستقبلها ومبرهنة للإنسانيّة المتعزّية على أن الحياة والذكاء والقوّة الأخلاقية قد ثبتت في البروليتاريا متدفّقة بالعزم رغم زوالها، في الطبقات العليا. باريس التي افتتحت العهد الجديد أي عهد تحرّر الطبقات الشعبية النهائي والكامل وتعاونها الفعلّي من وراء حدود الدول، ورغم انتصابها. باريس التي قضت على الوطنيّة وأسّست على أنقاضها ديانة الإنسانية. باريس التي أعلنت نفسها إنسانيّة وملحدة وعوّضت الأوهام الإلهيّة بالحقائق العظيمة الموجودة في الحياة الاجتماعية وبالإيمان بالعلم، واستبدلت الأكاذيب وجور الأخلاق الدينيّة والسياسيّة والقضائية بمفاهيم الحريّة والعدالة والمساواة والأسس الأبديّة لكلّ أخلاق إنسانيّة. باريس البطولية والعقلانيّة المؤمنة التي جسّدت إيمانها العميق بمصير الانسانيّة بسقوطها الظافر وبموتها، وخلّفته أعمق وأحيا للأجيال القادمة. باريس التي غرقت في دم أبنائها الكرام. إنها الإنسانية صلبتها الردّة العالميّة والأوروبيّة المتحالفة بتأثير مباشر من كل الكنائس المسيحيّة ومن كاهن الجور

الأعظم، البابّا، لكنّ ثورة الشعوب العالميّة والمتكاتفة ستمثّل انبعاث باريس.

ذلك هو المعنى الصحيح، وتلك هي النتائج النافعة والعظيمة لشهرين من الوجود، ولسقوط كُمونة باريس الخالد ذكره إلى الأبد.

لم تدم كُمونة باريس إلا قليلا. وأعيق تطوّرها الداخلي بالصراع القاتل مع ردّ فعل فرساي Versailles لكي تتمكّن، لا أقول من تطبيق برنامجها الاشتراكي، بل من إعداده نظريّا. ويجب الاعتراف على كلّ حال بأن معظم أعضاء الكمونة لم يكونوا اشتراكيين بالفعل، وإن بدوا كذلك فلأن قوّة الأحداث العاتية دفعتهم دفعا، وكذلك طبيعة بيئتهم ومقتضيات وضعيتهم، لا اقتناعهم الشخصي. ولم يكن يمثّل الاشتراكيّون الذين كان على رأسهم الصديق فرلان Varlin سوى أقليّة ضئيلة في الكمّونة، فلم يتجاوزوا أربعة عشر أو خمسة عشر عضوا على أقصى تقدير. أما البقيّة فقد كانت مكوّنة من اليعقوبيّين. ولكن لنتفّق ا فهنالك يعقوبيّون ويعقوبيّون آخرون. يوجد اليعقوبيّون المحامون والعقديّون أمثال السيد قمبطا Gambetta الجمهوريّ الوضعيّ * والمغرور

* انظر رسالته إلى ليتري littré في « تقدّم ليون » Le progrés de Lyon – (تعليق باكونين).

والاستبداديّ والشكلي، الذي طلّق الإيمان الثوريّ القديم ولم يحافظ من اليعقوبيّة إلا على عبادة الوحدة والسلطة، فسلّم فرنسا الشعبيّة إلى البروسيّين، ثم إلى الردة المحليّة بعد ذلك ويوجد اليعقوبيون الثوريّون بحقّ، الأبطال وآخر من يمثّل إيمان عام 1793، والصادقون الذين يؤثرون أن يضحّوا بوحدتهم وسلطتهم اللتين تحبّذهما مقتضيات الثورة على أن يحنوا ضمائرهم أمام وقاحة الرّدّة. فهؤلاء اليعقوبيّون الكرماء، الذين يأتي في مقدّمتهم طبعا دوليكليز Delscluze، الرجل ذو النفس الكبيرة والأخلاق العالية، يريدون انتصار الثورة قبل كل شيء. وبما أنه لا تكون ثورة بمعزل عن الطبقات الشعبيّة، وبما أن الطبقات الشعبيّة أضحت غريزتها اليوم اشتراكيّة لا يمكنها أن تثور إلا ثورة اقتصادية واجتماعيّة، فإن اليعقوبيّين الصادقين، سينتهي بهم الأمر إلى أن يصيروا، نتيجة لانقيادهم وراء منطق الحركة الثوريّة، اشتراكيين على الرغم منهم.

هكذا كانت بالضبط حالة اليعقوبيين الذين انتموا للكمّونة. وقد أمضى دوليكليز وآخرون معه على كثير من البرامج والتصريحات التي كانت فكرتها العامّة ووعودها إيجابيّة واشتراكيّة. ولكن بما انهم لم يكونوا، رغم حسن نواياهم، إلا اشتراكيين مدفوعين من الخارج، لا مقتنعين في داخلهم، وبما أنهم لم يجدوا الوقت الكافي ولا حتى القدرة على مغالبة وإلغاء

رُكـامٍ الآراء المسبّقـة الـبرجـوازيّة التي تنـاقض في داخلهم اشـتراكيتهم الحـديث عهـدهـا، فإننـا نفهـم لماذا شلّتهم الصراعـات الـداخلية، فعجـزوا عن الخـروج من تلك العموميّات، أو عن اتخاذ بعض القرارات الحاسمة التي تقطع بين تضامنهم وعلاقاتهم كلّها وبين العالم البرجوازيّ إلى الأبد.

وقد كان ذلك مصيبة كبرى حلّت بالكمّونة وبهم، فشلّتهم وشلّوا الكمّـونـة، لكننـا لا نستطيع مؤاخذتهم، واعتبارهم مخطئين لأن الناس لا يتغيّرون بين عشيّـة وضحاها، ولا تتبدّل طبائعهم وعاداتهم بكل بساطة. وقد برهنوا على صدقهم لما قبلوا الموت في سبيل الكمّونة فمن يجرؤ على مطالبتهم بالمزيد ؟.

ومن أعذارهم كذلك أن شعب باريس نفسه الذي فكّروا وتحرّكوا تحت تأثيره كان اشتراكيا بالغريزة أكثر مما كان بالفكرة أو بالاقتنـاع المـتروّي فكـلّ تطلّعاته تنزع إلى أرقى درجات الاشـتراكية، أمـا أفكـاره، أو بالأحـرى تصوّراته التقليديّة فبعيدة، لم ترق إلى ذلـك المستـوى. ومـازال كثـير من المسبّقـات اليعقـوبيّة والخيالات الـديكتاتوريّة والحكوميّة في نفـوس بروليتاريا المدن الكبيرة في فرنسا وحتى في بروليتاريا باريس. ولما تُقْتَلَعْ نهائيّا من جذورها، عبادة السلطة، أي النتيجـة المشؤومة للتربية الدينيّة، ذلك المنبع التاريخي لكلّ

النكبات والانحطاطات والعبوديّات الشعبيّة. وكم هذا صحيح إلى حدّ أن أنبغ أبناء الشعب وأكثر اشتراكيّيه اقتناعا، لم يتوصّلوا إلى التحرّر منها نهائيّا. ولنبحث في ضمائرهم، فسنجد فيها اليعقوبيّ والحكوميّ الكامن في بعض الزوايا المظلمة، والحقّ أننا نجده ضئيلا جدّا إلا أنه لم يمت كلّيا.

وعلى كل حال. فقد كانت وضعيّة الاشتراكيّين القلائل المقتنعين الذين انتموا إلى الكمّونة عسيرة جدا. فلم يشعروا بتدعيم كاف من الطبقات الشعبية الباريسيّة. ولم يكن تنظيم الجمعيّة الأمميّة مُحكمًا إذ لم يكن يشمل أكثر من بضعة آلاف من الأفراد، لذلك كان عليهم أن يتصارعوا يوميّا مع الأغلبيّة اليعقوبيّة. وفي أي ظروف؟ لقد كان عليهم أن يوفّروا العمل والخبز لبضعة مئات من آلاف العمّال، وأن ينظّموهم ويسلّحوهم، ويراقبوا في نفس الوقت، الهجومات الرجعيّة في مدينة هائلة مثل باريس، محاصرة ومهدّدة بالمجاعة، ومسلّمة إلى مختلف المؤامرات القذرة لحركة الردّة التي استطاعت أن تتكوّن وتثبت في فرساي بإذن من البروسيّين وبمباركة منهم. ووجدوا أنفسهم مضطرّين لمواجهة حكومة وجيش فرساي بحكومة وجيش ثوريّين. أي أنهم نَسُوا أو ضحّوا بأهمّ شروط الاشتراكية الثوريّة، وأرغموا على أن يتشكّلوا في حكومة رجعيّة يعقوبيّة لمقاومة الرجعيّة الملكيّة والكهنوتيّة.

أفلم يكن من الطبيعي أن يفوز اليعقوبيّون على الاشتراكيين فوزا كبيرا في مثل تلك الظروف، فقد كانوا في الوضع الأقوى لأنهم كانوا يمثّلون الأغلبيّة في الكمونة، ويتمتّعون زيادة على ذلك بحدس سياسيّ فائق جدّا وبتقاليد سياسيّة وممارسة للعمل الحكومي. وما يثير استغرابنا هو أنهم لم يستغلّوا تلك الخبرات أكثر مما فعلوا ليضفوا على انتفاضة باريس طابعا يعقوبيّا صرفا، وأنهم انقادوا على عكس ذلك وراء ثورة شعبيّة.

وأنا أعرف أن كثيرا من الاشتراكيين المتشدّدين في نظريّاتهم يلومون أصدقاءنا الباريسيين لأنهم لم يكونوا حسب رأيهم اشتراكيين بما فيه الكفاية، في تطبيقهم الثوريّ، بينما يتهمهم كلّ النابحين في الصحافة البرجوازيّة بأنهم طبّقوا برنامج الاشتراكية بحذافيره. ولندع الآن مخبري الصحافة اللّؤماء، أما المتشدّدون في نظريّاتهم المتعلّقة بتحرّر البروليتاريا، فألفت انتباههم إلى أنهم ظلموا إخواننا الباريسيّين، فبين أصحّ النظريات، وبين تطبيقها في الواقع مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في بضعة أيام. وكل من حالفه الحظّ وعرف فارلان Varlin مثلا، حتى لا نذكر إلا من تُؤُكِّدَ من موته، يعلم كم كان، وأصحابه، متحمّسين للأفكار الاشتراكيّة المترويّة والعميقة. فقد كان حماس هؤلاء المتأجّج وإخلاصهم وصدقهم فوق كل الشكوك، وهذا معروف لدى كل من

عرفهم عن قرب. لكنهم كانــوا، نتيجـة لذلـك الصـدق بالـذات، شديدي الحـذر من أنفسهم أمام الهدف العظيم الذي سخّروا من أجله تفكيرهم وحياتهم، فلم يعطوها أهميّة كبيرة. وكانوا على اقتناع بأن عمل الأفراد يكاد يكون لاغيا وأن عمل الطبقات الشعبيّة التلقائي، هو الذي يجب ان يمثّل كل شيء في الثورة الاجتماعيّة، وفي الثورة السياسيّة كذلك. وكل ما يستطيع أن يفعل الأفراد، هو تهيئة الأفكار الملائمة للغـريزة الشعبية وتـوضيحهـا ونشرهـا، وتـوظيف جهودهم المتواصلة للمساهمة في التنظيم الثوري للقوّة الطبيعيّة التي في الطبقات الشعبيّة، دون أن يتجاوزوا هذا أبدا. أما الباقي فلا يمكن أن ينجز إلا من قبل الشعب، وإلا أفضى الأمر إلى الـديكتـاتـوريّة السياسيّة، أي إلى إنشـاء جديد للدولـة والامتيازات والاضطهادات ومظالم الدولة كلها، وبهذا نعود، بطريقـة ملتـوية ولكن منطقية إلى عبوديّة الطبقات الشعبيّة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصادية.

لقـد كان فارلان وكـل أصحـابـه، ككـلّ الاشـتراكيين الصادقين عامّة وككلّ العمّال الذين ولدوا ونشؤوا بين أحضان الشعب يؤمنـون إيمانـا عميقا بوجوب إعاقة مشروعة لهيمنة متـواصلة من نفس الأشخاص، ومنع سيطرة يسلطها أفراد متفوّقون. وبما أنهم كانوا مستقيمين قبل كل شيء، فقد كانوا يسلّطون على أنفسهم هذا المنع، ويحذرونها كما يحذرون غيرهم.

وهذا ما يناقض فكرة الشيوعيين الاستبداديين الخاطئة في رأيي، والقائلة : إن الثورة الاجتماعية لا يمكن أن تُعلن أو تنظّم إلا من قبل ديكتاتورية أو مجلس تأسيسيّ منبثق عن ثورة سياسيّة. أما الاشتراكيون الباريسيّون فقد رأوا أنها لا يمكن أن تكـون وتبلغ ذروة تطوّرهـا إلا نتيجـة للعمـل التلقائي والمستمر الذي تقوم به الطبقات والجماعات والتجمعات الشعبيّة.

وقد كان أصدقاؤنا الباريسيّون ألف مرّة على صواب. فأيّ عقـل، مهما بلغت عبقريّته، وإذا ما تحدّثنا عن ديكتاتورية جماعيّة وإن كانت مكـوّنـة من مئـات الأشخاص المتمتعين بمواهب خارقة، أيُّ عقول تبلغ من القوة والاتساع ما يمكنها من الإحاطة بالكثرة والتنوع اللامتناهيين اللذين في المصالح الفعلية والتطلّعات والإرادات والحاجيات التي يكوّن مجموعها إرادة الشعب المشتركة، ويمكنّها من وضع نظام اجتماعيّ قادر على إرضـاء كل النـاس؟ ولن يكـون مثلُ هذا التنظيم إلا كمثل « سرير بروكستوس » الذي يُرغِم عنف الدولة بأشكاله المجتمع المسكين على الامتداد فوقه. وهذا ما حدث دوما إلى حدّ الآن. وعلى هذا النمط العتيق للتنظيم القسريّ، يجب أن تقضي الثورة الاجتماعيّة لتردّ إلى الطبقات الشعبية والجماعات والكمّونات والتجمعات، وحتى إلى الأفراد حريتهم الكاملة، ولتدمّر نهائيا السبب التاريخي الكامن وراء أشكال التعسّف

كلها، أي قوة الدولة ووجودها، حتى يجرف سقوطها وراءه مظالم القانون القضائي كله، وكل الأباطيل التي تنشرها المعتقدات المختلفة، إذ أن ذلك القانون وتلك المعتقدات، لم تكن سوى إقرار إجباري مثالي أو واقعي لكلّ الاستبدادات التي مثّلتها الدولة وضمنتها وحمتها.

ومن البديهي أن الحريّة لن تُرجع إلى العالم البشريّ، وأن مصالح المجتمع الفعليّة، ومصالح كل الجماعات وكل التنظيمات المحليّة وكل الأفراد الذين يكوّنون المجتمع لن تعرف تلبية حقيقيّة إلا متى ألغيت الحكومات. ومن البديهي أيضا أن مصالح المجتمع التي يُزعم أنها عامّة، ويُفْرض أن الدولة تمثلها، والتي ليست في الواقع سوى نفي عام ودائم للمصالح الفعليّة للأقاليم والكمونات والتجمعات والأغلبيّة الساحقة من الناس الخاضعين للدولة، لا تمثّل إلا تجريدا ووهما وكذبا، وأن الدولة تشابه مجزرة كبيرة أو مقبرة هائلة، تقبل أن تذبح فيها كل الطموحات الفعليّة وكل قوى البلاد الحيّة بكل سخاء وسذاجة، في ظلّ ذلك التجريد وبسببه. وبما أنه لا توجد أي فكرة مجرّدة بذاتها ولذاتها، وبما أنها لا تملك ساقين لكي تمشيء ولا ذراعين لكي تصنع، ولا معدة لكي تهضم قطيع الضحايا الذي يقدّم لها كي تزدرده، فمن الواضح أن التجريد الديني أوالسماوي أي الإله، يمثّل في الواقع المصالح الفعلية واليقينيّة جدّا لطبقة مغلقة تتمتّع بامتيازات كثيرة هي

طبقة الإكليروس، تماما كما يمثّل التجريد السياسي المصالح التي لا تقلّ فعاليّة وثباتا، والتي تتمتّع بها الطبقة المتفرّدة اليوم بالاستغلال، والنازعة إلى احتواء كل الطبقات الأخرى وهي البرجوازية. وبما أن طبقة الإكليروس انقسمت دائما، وتنزع اليوم إلى الانقسام أكثر، إلى أقليّة شديدة الثراء والقوة وأغلبيّة خاضعة وبائسة، فإن البرجوازية ومختلف مؤسساتها الاجتماعية والسياسيّة في الصناعة والفلاحة والبنوك والتجارة، كما في مختلف أنشطة الدولة الإدارية والماليّة والقضائيّة والجامعيّة والبوليسيّة والعسكريّة تنزع من يوم لآخر إلى الالتحام أكثر في أوليغارشيا مسيطرة فعليا، وجموع لا تحصى من الكائنات المغترّة والساقطة التي تعيش في وهم أبديّ، مدفوعة حتما داخل البروليتاريا بقوّة متصاعدة لا تقهر، هي قوّة التطوّر الاقتصادي الحالّي، ومقتصرة على أن تقوم مقام آلات عمياء في خدمة تلك الأوليغارشيا الجبّارة.

ويجب أن يكون إلغاء الكنيسة والدولة الشرط الأول والأساسي لانعتاق المجتمع الفعلي. وبعد ذلك له، بل عليه أن ينتظم بطريقة أخرى، ولكن ليس من فوق إلى تحت، وحسب تخطيط مثالّي حلم به بعض الحكماء والعلماء، أو فرضته مراسيم أصدرتها قوّة ديكتاتوريّة ما، أو حتى مجلس نوّاب منتخب انتخابا عامّا، لأن نظاما مثل هذا يؤدي حتما، كما بيّنت، إلى إنشاء حكومة جديدة. وبالتالي إلى تكوين

أرستقراطية حكوميّة، أي طبقة كاملة من الأشخاص الذين لا يجمعهم شيء بالطبقات الشعبية. وطبعا ستستغلهم هذه الطبقة من جديد وتخضعهم متذرعة بالمصلحة العامّة أو بإنقاذ الدولة.

كما ينبغي أن يتمّ تنظيم المجتمع المستقبلي من تحت إلى فوق فحسب، عن طريق اشتراك العمّال الحرّ واتحادهم ضمن جمعيّات في أوّل الأمر، ثم في نطاق الكمّونات والأقاليم والبلدان وأخيرا ضمن اتحاد فدرالي أمميّ وعالميّ كبير. عندها فقط يتحقّق نظام الحريّة والسعادة العامّة، ذلك النظام الحقيقي والمحيي، الذي يؤكد مصالح الأفراد والمجتمع ويوفّق بينها عوض أن ينكرها.

ويقال إنه من المستحيل أن يتحقّق بالفعل الوفاق والتضامن الكلّي بين مصالح الأفراد ومصالح المجتمع، لأن هذه المصالح متناقضة وغير قادرة على التوازن والاتفاق. وعلى هذا الاعتراض أجيب بأنه، لئن لم تكن هذه المصالح على اتفاق أبدا وفي أي مكان، فبسبب الدولة التي ضحّت بمصالح الأغلبيّة لفائدة أقليّة متميّزة، ولهذا، فإن ذلك التضّاد الشهير وذلك الصّراع بين المصالح الشخصيّة ومصالح المجتمع ليسا سوى تضليل وكذب سياسيّ ولّده الكذب اللاهوتي الذي اختلق مبدأ الخطيئة الأصليّة ليُخزي الإنسان

ويحطّم فيه شعوره بقيمته الشخصيّة. وهذه الفكرة الخاطئة القائلة بتنافر المصالح، ولّدتها أيضا أحلام الميتافيزيقيا التي نعلم قرابتها الحميمة بعلم اللاهوت، فالميتافيزيقيا تنكر اجتماعيّة الطبيعة البشرية وتعتبر المجتمع تراكما آليّا واصطناعيّا صرفا من أفراد يجتمعون فجأة باسم معاهدة ما، شكليّة أو سرّيّة وقع إبرامها بحريّة أو تحت تأثير قوّة عليا. وقد كان هؤلاء الأفراد قبل اجتماعهم في مجتمع يتمتعون بما يسمّى أرواحا خالدة وينعمون بحريّة مطلقة.

إلا أن اعتبار الميتافيزيقيين الناس، وخاصّة المؤمنين بخلود الروح من بينهم، كائنات حرّة خارج المجتمع، يفضي حتما إلى هذه النتيجة المتمثلة في أن البشر لا يمكن أن يتحدوا في مجتمع إلا بشرط أن ينكروا حريتهم واستقلالهم الطبيعيّ، ويضحّوا بمصالحهم الشخصيّة أوّلا ثم المحليّة بعد ذلك، وتزداد ضرورة هذا التخلّي وهذه التضحية بالذات إلحاحا، كلما اتسع المجتمع وتعقّد تنظيمه. وفي مثل هذه الحالة تكون الدولة تعبيرا عن كل التضحيات الفردية، وبما أنها موجودة بهذا الشكل المجرّد والقاسي في الآن نفسه، فإنها تواصل بطبيعة الحال عرقلة الحريّة الفرديّة باسم تلك الكذبة المسماة بـ « المصلحة العامة » رغم أنها لا تمثّل طبعا سوى مصلحة الطبقة المسيطرة. وبهذه الطريقة تبدو لنا الدولة نفيا وإلغاء لكلّ حريّة ولكل مصلحة فرديّة أو عامّة.

ونلاحظ هنا أن الأمور كلّها ترتبط وتفسّر ذاتها بذاتها في مذاهب الميتافيزيقيين. ولهذا يستطيع حماة هذه المذاهب مواصلة استغلال الطبقات الشعبيّة بواسطة الكنيسة والدولة مرتاحي الضمائر، فيملؤون جيوبهم ويشبعون أهواءهم القذرة، ويتعزّون في الوقت نفسه بأنهم يشقون في سبيل مجد الإله وانتصار الحضارة وسعادة البروليتاريا الأبديّة.

أما نحن الذين لا نؤمن بالإله ولا بخلود الروح ولا بحريّة الإرادة الذاتيّة فنؤكد أنه يجب أن ندرك أن الحرية في مفهومها الأكمل والأوسع، هي هدف تطوّر البشرية التاريخي. وأما خصومنا، مثاليّو اللاّهوت والميتافيزيقيا، فينطلقون من تناقض عجيب ولكن منطقيّ، ويتّخذون مفهوم الحريّة أساسا لنظريّاتهم، ليستخلصوا بكل بساطة أن عبوديّة البشر أمر ضروريّ. فنحن الماديّون نظريًا ننزع عمليا إلى إنشاء مثاليّة عقلانية ونبيلة ودائمة، بينما يسقط أعداؤنا المثاليون الإلهيون والاستعلائيون إلى حدّ التخبّط في الماديّة العمليّة الدمويّة والخسيسة باسم المنطق عينه، الذي يكون بمقتضاه كل تطوّر نفيا للمبدأ الأساسي. ونحن مقتنعون بأن ثراء الإنسان الذهني والأخلاقي والمادي كله، وكذلك استقلاله الظاهري، نتيجة للحياة الاجتماعيّة. ولا يكون الانسان خارج المجتمع معدوم الحريّة فحسب، بل لا يمكنه حتى أن يصير إنسانا فعليًا، أي واعيا بذاته، يحسّ ويفكر ويتكلم. أما ما

استطاعت مؤازرة الذكاء والعمل الجماعي فعله، فلم يتجاوز إجبار الانسان على الخروج من الحالة الوحشية والحيوانية التي كانت تمثل طبيعته الأولى أو نقطة انطلاق تطوّره التالي. كما نحن مقتنعون بهذه الحقيقة القائلة : إن كل ما في حياة البشر من مصالح ونزعات وحاجيات وأوهام وحتى حماقات، وما فيها من عنف وجور، وكل الأعمال التي تبدو في الظاهر إراديّة، لا يمثّل إلا نتيجة لقوى الحياة الاجتماعيّة الحتميّة. ولا يستطيع الناس التسليم بفكرة الاستقلال المشترك، كما لا يستطيعون إنكار التأثير والعلاقة المتبادلين بين مظاهر الطبيعة الخارجيّة.

ولا تبلغ هذه العلاقة الرائعة المتبادلة بين الظواهر، ولا يُدرك تسلسل هذه الظواهر في الطبيعة بغير كفاح. بل لا يبدو تناسق قوى الطبيعة سوى نتيجة فعليّة لذلك الكفاح المتواصل الذي يمثّل شرط الحياة والحركة، وذلك لأن النظام بلا كفاح ليس في الطبيعة كما في المجتمع سوى الموت.

ولئن كان النظام طبيعيًا في الكون وممكنا، فلأن هذا الكون لا يخضع لتنظيم متصوّر مسبّقا ومفروض من قبل إرادة عليا. أما الفرضية اللاهوتيّة المتعلّقة بتشريع إلهي، فإنها تؤدي إلى سخف بديهيّ ورفض، لا لكل نظام فحسب، بل للطبيعة ذاتها. وليست القوانين الطبيعيّة فعليّة إلا فيما هي

ملازمة فيه للطبيعة. وهذا يعني أنها ليست محدَّدة من قبل أي سلطة وليست هذه القوانين سوى مظاهر بسيطة أو كيفيّات مستمرّة لتطوّر الأشياء والتركيبات الذي تمرّ به الأحداث المتنوعة جدا والعابرة والفعليّة مع ذلك. ويمثّل المجموع ما نسميه « الطبيعة » وقد درس الذكاء البشري والعلم تلك الأحداث وراقباها تجريبيّا، ثم جمّعاها في نظريّة وسمّياها قوانين، إلا أن الطبيعة ذاتها، لا تعرف قوانين البتّة، بل تعمل لا شعوريا، ممثلة بذاتها التنوع اللامتناهي للظواهر المتولّدة والمتكرّرة بطريقة حتميّة، ولهذا، أي بفضل حتميّة الظواهر تلك، يمكن للنظام الكوني أن يوجد فيوجد بالفعل.

ويظهرمثل هذاالنظام كذلك في المجتمع البشري الذي يتطوّر ظاهريّا بطريقة يزعم أنها مضادّة للطبيعة، لكنه يخضع في الحقيقة لمسيرة طبيعيّة وحتميّة. وليس سوى تفوّق الانسان على الحيوانات الأخرى، وملكة التفكير، أضافا لتطوّره عنصرا خصوصيّا وطبيعيّا للغاية لأن الإنسان لا يمثّل في آخر الأمر، ككلّ ما هو موجود سوى الحاصل المادّي لاتحاد القوى وعملها. وهذا العنصر الخصوصي هو التفكير، أو ملكة التعميم والتجريد التي يستطيع بواسطتها أن ينغمس في التفكير، ليفحص نفسه ويدرسها، كما لو كانت شيئا خارجيّا وغريبا، فيرتفع فكريّا فوق ذاته وفوق العالم المحيط ليصل إلى التصوّر، من التجريد الأكمل إلى العدم المطلق. وليس هذا

المطلق سوى ملكة التجريد التي تحتقر كل ما هو موجود لتبلغ النفي المطلق حيث تجد راحتها، وهذا الحدّ الأخير الذي يبلغه تجريد الفكرة الأعلى، وهذا اللاشيء المطلق هو الإله.

ذلك هو المعنى الأساسي والتاريخي لكل العقائد اللاهوتية. ونتيجة لعدم فهمهم طبيعة تفكيرهم وأسبابه المادّية، وعدم إدراكهم للشروط أو القوانين الطبيعيّة التي تخصّهم، لم يَدُرْ في خَلَدِ البشر البدائيين والمجتمعات الأولى أن مفاهيمهم المطلقة لم تكن سوى نتيجة لملكة تخيّل الأفكار المجرّدة.

ولهذا السبب، اعتبروا هذه الأفكار المستمدّة من الطبيعة أشياء موجودة بالفعل إلى حدّ أن الطبيعة ذاتها تنعدم إزاءها. ثم انهمكوا بعد ذلك في عبادة خيالاتهم ومفاهيمهم المطلقة المستحيلة ومنحها كل الأمجاد. وقد كان من الضروريّ تشخيص فكرة المطلق أو الإله المجرّدة بطريقة ما وجعلها محسوسة، ولهذا القصد، ضخّموا مفهوم الألوهية التي منحوها فوق ذلك كلّ الخصال والقوى الحسنة والسيئة التي كانوا يعترضونها في الطبيعة وفي المجتمع.

ذاك هو مصدر الديانات كلّها، وذاك هو تطوّرها التاريخي انطلاقا من البُدِّيَّةِ وانتهاء عند المسيحية.

وليس في نيّتنا أبدا أن نخوض في تاريخ السخافات الدينيّة واللاهوتية والميتافيزيقية، ولا أن نتحدّث عن الانتشار المتعاقب الذي عرفته كل التجسّدات والرّؤى الالهية التي خلقتها قرون من البربريّة. ومعروف لدى الجميع أن الخرافات كانت دوما تولّد ويلات فظيعة وتجبر على إراقة أنهار من الدماء والدموع، بل نكتفي بأن نقول إن مثل هذه الضلالات التي عرفتها الانسانيّة المسكينة، كانت أحداثا تاريخيّة حتميّة في التطوّر الطبيعي الذي شهدته التنظيمات الاجتماعيّة. ومثل هذه الضلالات، ولّدت في المجتمع تلك الفكرة المشؤومة التي تزعم أن الكون تسيّره قوّة وإرادة فوطبيعيّتان. وتعاقبت القرون وراء القرون، وتعوّدت المجتمعات على هذه الفكرة إلى حدّ أنها قتلت في نهاية الأمر كل نزوع في ذاتها نحو تقدّم أرقى، وكل طاقة على بلوغه.

وقد جعل طموح بعض الأفراد في بداية الأمر، ثم بعض الطبقات الاجتماعية، من العبودية والغزو مبدأين حياتيّين، فغرسوا فكرة الألوهية الرهيبة وغلغلوها. ومنذئذ، استحال وجود مجتمع لا يتأسّس على هاتين المؤسستين، أي الكنيسة والدولة. وينتصب كل العقديين حماة لهاتين الآفتين الاجتماعيتين.

وما إن ظهرت تانك المؤسستان في العالم حتى تكوّنت طبقتان مغلقتان، أولاهما طبقة الكهّان، والأخرى طبقة الأرستقراطيين، فتعهّدتا دون إضاعة لوقت، بتلقين الشعب المستعبد حتمية وجود الكنيسة والدولة، وفائدتهما وقداستهما.

وقد كانت الغاية من وراء كل هذا، هي جعل العبوديّة القاسية عبوديّة شرعية مكرّسة من قبل إرادة الكائن الأسمى.

ولكن هل كان الكهّان والأرستقراطيون يؤمنون حقيقة بهاتين المؤسستين اللتين كانوا يدافعون عنهما بكل قواهم من أجل مصلحتهم الشخصية؟ ألم يكونوا غير كذّابين مضلّلين؟ كلا! فأنا أعتقد أنهم كانوا في نفس الوقت مؤمنين ودجّالين.

لقد كانوا هم أيضا يؤمنون لأنهم كانوا يشاركون طبعا وحتما، الشعب في ضلاله. لكنهم أمسوا منذ عصر انحطاط العالم القديم مرتابين ومخادعين بلا حياءٍ. وثمة سبب آخر يسمح باعتبار مؤسّسي الدول أناسا صادقين وهو أن الانسان يؤمن دائما بسهولة، بكل الأمور التي يرغب فيها ولا تعارض مصالحه. والأمر واحد مهما كانت ثقافته أو ذكاؤه، إذ يدفعه كبرياؤه ورغبته في الحياة مع بني جنسه حاظيًا باحترامهم، إلى الإيمان دائما بكلّ ما يعجبه وينفعه. وأنا مقتنع تماما على سبيل المثال، بأن تيارس Thiers وحكومة فرساي كانوا يجهدون

أنفسهم، ليقنعوها بأنهم، عندما يقتلون في باريس آلافا من الرجال والنساء والأطفال، ينقذون فرنسا.

ولكن حتى وإن آمن الكهنة والعرّافون والأرستقراطيّون والبرجوازيّون إيمانا صادقا في العصور القديمة والحديثة، فإن هذا لم يمنعهم من أن يبقوا على كل حال وشاة. ولا نستطيع أن نسلّم بأنهم قد آمنوا بكل السخافات المكوّنة للدّيانة والسياسة. ولا أتحدّث هنا عن العصر الذي «لم تكن تتلاقى فيه نظرات عرّافين دون أن يضحكا» كما ذكر شَيْشَرُون Cicéron. فمن الصّعب جدّا أن نفترض أن مخترعي المعجزات اليوميّة كانوا يؤمنون بها حتى بعد ذلك، أي أثناء عصور الجهل والخرافات العامّة. ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن السياسة التي يمكن تلخيصها في القاعدة التالية: يجب قمع الشعب ونهبه بطريقة تجعله لا يندب قَدَرهُ بصوت عال ولا ينسى أن يستسلم خاضعا ولا يجد الوقت لكي يفكّر في المقاومة والثورة.

فكيف نتخيّل بعد هذا أن أناسا اتخذوا من السياسة مهنة يعرفون الغاية من ورائها، والمتمثّلة في الجور والقمع والكذب والخيانة والقتل الجماعي أو الفرديّ، يستطيعون أن يؤمنوا صادقين بفنّ السياسة وبحكمة الدولة المولّدة للسعادة الاجتماعيّة؟ ولا يمكن أن يكونوا قد بلغوا هذه الدرجة من الغباء رغم قساوتهم كلّها.

لقد كانت الكنيسة والدولة في كل العصور مدرستين كبيرتين للرذائل، والتاريخ على جرائمهما لشهيد. وقد كان رجال الدين ورجال الدولة في كل زمان ومكان أعداء الشعوب وجلّاديها الواعين والمطلقين والقساة والدمويّين.

ولكن كيف يمكن أن نوفّق رغم ذلك بين أمرين شديدي التنافر في الظاهر، أي بين الخادعين والمخدوعين، وبين الكاذبين والمؤمنين ؟ إن هذا يبدو عسيرا، بينما كثيرا ما تلتقي هذه الصّفات في الحياة العمليّة.

إن معظم البشر يعيشون في تناقض مع أنفسهم، وفي سوء تفاهم مستمرّ دون أن يتفطّنوا لذلك في أغلب الأحيان، إلى أن يُخرجهم حدث خطير من غفوهم المعتاد ويرغمهم على التأمل فيما يحيط بهم.

وليس الناس في السياسة كما في الديانة سوى آلات بين أيدي المستغلّين، لكن السارقين والمسروقين والمستغِلّين والمستغَلّين يعيشون جنبا إلى جنب، محكومين من قبل عدد قليل من الأفراد ينبغي اعتبارهم المستغلين الحقيقيين. إنهم المتحرّرون من كل المسلّمات السياسيّة والدينيّة الذين يستبدّون ويجورون بكلّ وعي. وقد حكموا في أروبّا وتصرّفوا كما بدا لهم في القرنين السابع والثامن عشر حتى اندلاع الثورة

الكبرى، وفي أيّامنا هذه كذلك. إلا أن سيطرتهم لن تعمّر بعد هذا طويلا.

وبينما يخدع الرّؤساء الكبار الشعوب ويضلّلونها عن قَصْدٍ، يجدُّ خدمهم أو مخلوقات الكنيسة والدولة بكلّ مثابرة لتأكيد قداسة تَيْنِكَ المؤسستين المِقيتَتَيْنْ ونزاهتهما. وإن كانت الكنيسة حسب زعم الكهّان أو أَغلبيّة الناس ضروريّة لخلاص الروح فإن الدولة ضروريّة بدورها للمحافظة على السلام والنّظام والعدالة. ولهذا يصرخ العقديّون كلهم، من مختلف المدارس: «لا حضارة ولا تقدّم بغير كنيسة وحكومة».

وليس لنا أن نناقش قضيّة الخلاص الأبديّ لأننا لا نؤمن بخلود الروح ونحن مقتنعون أن أكثر ما يضرّ بالإنسانيّة والحقيقة والتقدم هو الكنيسة. ولا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك، فمن يتكفّل بإفساد الأجيال الناشئة والنساء خاصّة؟ - أليست هي التي ترمي إلى قتل التفكير المنطقي والعلم بواسطة عقائدها وأباطيلها وحماقتها وجهلها؟

ألا تنال من كرامة الانسان عندما تفسد فيه مفهوم الحقوق والمساواة؟

- أليست هي تبشّر بعبوديّة الطبقات الشعبيّة الأبديّة لفائدة الطغاة والمستغلّين؟

ـ أليست هي ، تلك الكنيسة الشرسة التي ترمي إلى تخليد ملكوت الظلمات والجهل والبؤس والجريمة ؟

وإن لم يكن التقدم الذي يشهده هذا القرن حلما كاذبا ، فعليه أن يتخلّص من الكنيسة .

تراجم الأعلام
الواردة بالكتـاب

(أ)

* **أفلاطون (427 ـ 347 ق ـ م).**

فيلسوف إغريقي، التقى بسقراط في العشرين من عمره ولازمه ثمانية أعوام تلقّى أثناءها أصول الفلسفة عنه. وقف على العلاقة بين الفلسفة والعدالة والسياسة بمناسبة محاكمة أستاذه. كان كثير الأسفار وتقلّب في بلاطات كثيرة. أسّس سنة 387 ق ـ م. « الأكاديميّة » واتّخذ لها شعارا : « لا يَدْخُلَنْ علينا إلا من كان مهندسا ». وتتضمّن تآليفه ثمانية وعشرين حوارا ينطق فيها بلسان سقراط ويحدّد فيها عدّة مفاهيم مثل الشجاعة والحكمة والصداقة. وتبيّن « أسطورة الكهف » في كتابه « الجمهورية » الطريق المؤدية من عالم الظواهر المحسوسة إلى عالم الحقيقة المثالي. ويعتقد أفلاطون أن المحبة والرياضيات هما الطريق إلى الحقيقة.

* **الاسكندر الثاني (1818 ـ 1881)**

امبراطور روسيا منذ سنة 1855، ورث إلى جانب الحكم أوضاعا آخذة إلى التدهور بعد نهاية حرب القرم فحاول القيام بإصلاحات تجعل من روسيا قوّة عظمى فمنح الأقنان حريّتهم وسهّل عليهم اقتناء الأراضي وطوّر الادارة والقضاء وفتح

المدارس لأبناء كل الطبقات والديانات، لكن المحافظين استغلّوا الانتفاضة البولونيّة سنة 1863 ومحاولة اغتيال الامبراطور سنة 1866 ليفرغوا هذه الاصلاحات من محتواها وليقمعوا الحريات مما أثار الرأي العام وألهب المعارضات. وانتهى عهد الاسكندر الثاني في جوّ من البلبلة والذّعر والاغتيالات حتى كان مقتله سنة 1881.

* أوجيني Eugénie (1920-1826) (Eugénia de Montijo)

امبراطورة فرنسا، ولدت بإسبانيا (مدريد). تزوّجت نابليون الثالث سنة 1853 وبعد ميلاد ابنها « وريث العرش » أصبح لها بعض التأثير على مجرى الأحداث السياسيّة لكنها لم تتمكن أثناء وصايتها على الحكم سنة 1870 بعد سجن زوجها من إنقاذ الامبراطورية الثانية من السقوط.

(ب)

* بازين : BAZAINE Achille (1888 - 1811)

قائد القوّات الفرنسيّة الأعلى بالمكسيك سنة 1863. تحصّل على رتبة ماريشال في العام الموالي ثم قائد الحرس الامبراطوري سنة 1869. سمّاه نابليون الثالث على رأس الجيوش الفرنسيّة في « اللورين » لكنه استسلم للعدوّ،

وحاول التفاوض مع الامبراطورة. حكم عليه بالإعدام سنة 1873 ثم خفّف الحكم إلى السجن المؤبد لكنه تمكن من الفرار ولجأ إلى مدريد.

* بارق : (BERG (Fedor Fedorovitch (1874 - 1794)

الكونت دي بارق جنرال روسيّ حارب في ألمانيا سنة 1813 وفي فرنسا 1814 وضدّ الأتراك (1828 ـ 1829). وقد أظهر قسوة شديدة أثناء قمع الانتفاضة البولونية سنة 1831، تحصّل على رتبة جنرال 1843 وكلّفه نيكولاي الأول بمهامّ ديبلوماسية بفيانّا وبرلين. وأرسل من جديد إلى بولونيا لمحاصرة الثورة التي كانت تلوح في الأفق. وما إن اندلعت سنة 1863 حتى قمعها بقسوته المعهودة.

* بالّوتان : PELLETAN Camille (1915 - 1846)

سياسي فرنسيّ ولد وتوفي في باريس. نائب بالبرلمان وصحافيّ راديكالي اشتراكي. تولّى وزارة البحريّة من سنة 1902 إلى 1905.

* برودون : PROUDHON Pierre Joseph (1865-1809)

منظّر اشتراكي فرنسيّ ولد في عائلة من أصل قروي واضطرّ منذ صغره إلى هجر الدروس ليكسب قوته ويطوف بمعظم أرجاء فرنسا. وخلص إلى أن المجتمع الصناعي قائم على الجور. واستقرّ ببزانسون Besançon ليشتغل في الطباعة

ويحتك بأتباع فلسفة فورييه FOURIER . ثم استقرّ بباريس سنة 1838 وعمل في الصحافة. وبعد سنتين نشر بحثا « ما هي الملكية ؟ »، عبّر فيه عن نزعة فرديّة ممزوجة بأفكار لاسلطوية واستنتج أنه لاسبيل لوضع حدّ للظلم الاجتماعي إلا باختفاء المصلحة والفوائض الرأسمالية. وسرعان ما انفصل عن ماركس بعد أن التقيا لأنه لم يعتقد مثله أن العمل الثوّري هو وسيلة إصلاح المجتمع الأساسية. وردّ ماركس على كتابه « فلسفة البؤس » بكتاب « بؤس الفلسفة » وبعد نشاط سياسي تراوح بين النجاح والفشل تفرّغ للصحافة وكتب في « الشعب » ثم في « صوت الشعب » لكن المحاكمات أفلسته. وتسبّب له كتابه الهام « من العدالة في الثورة والكنيسة » 1858 الذي اقترح فيه تعويض الدين المسيحي بديانة العمل، في حكم بثلاث سنوات سجنا فلجأ إلى بروكسال. ونشر عام 1861 « مبدأ الفيدرالية » وتجلى تأثير أفكار برودون في « كمّونة باريس ».

*** برونو : BRUNO Giordano (1548 - 1600)**

فيلسوف إيطالي : من الأوائل الذين جسّموا القطيعة مع المفهوم الأرسطوطاليسي القائل بالعالم المغلق، وعوّضوه بمفهوم قائل بكون لامتناه. وتنتهي نظريّة برونو الكونيّة إلى رفض فكرة الخلق اللاهوتيّة. وقد تسبّبت هذه الأفكار الجريئة

في عصره بالإضافة إلى نقده للدور السياسي الذي تلعبه الكنيسة، في تعذيبه قبل حرقه حيّا بأمر من رجال الدين.

* **بلان (لويس)** : BLANC Louis (1811 - 1882)

اشتراكي فرنسي. جلب إليه الاهتمام لما كان صحافيّا ليبراليّا بنشره كرّاسة حوال موضوع « تنظيم العمل » سنة 1839 حمل فيها على المنافسة « أم كل المصائب » ودعا إلى حكوميّة البنوك ووسائل الانتاج الكبرى وإلى تنظيم محارف اجتماعيّة يسود فيها الروح الاشتراكي. ترأس لجنة الحكومة للعمّال التي قاومتها السلطة. ثم انتخب نائبا عام 1848 واضطرّ بعد ذلك لإنهاء حياته في المنفى.

* **بطرس : (توفي بين سنتي 64 و 67)**.

واحد من حواريّي المسيح وأوّل بابا في تاريخ المسيحيّة. كان له بعد المسيح نفوذ ديني واسع في كنيسة أورشليم قبل أن ينتقل إلى روما وتؤكد الروايات المسيحية أنه قتل أثناء اضطهاد نيرون قيصر للمسيحيين. تنسب له رسالتان في العهد الجديد.

* **بوذا** :

تطلق الروايات البوذيّة اسم « بوذا » على مؤسس البوذيّة « ساكياموني » Sakyamuni (القرن السادس ق. م) انقطع ساكياموني عن الدنيا وعاش حياته متنقّلا وباحثا عن سبيل

الخلاص والتحرّر من العذاب. وبعد أن وجد « اليقظة السامية والكاملة » أسّس أول الطوائف البوذيّة في بينراس Bénarés وانطلق يبشّر بمذهبه في كامل أرجاء الهند.

* بولس :

ولد بطرسوس بين سنتي 5 و 15 . ويروى أن هذا الفريّسي المتحمّس لاضطهاد المسيحيين قد ظهر له المسيح في طريقه إلى دمشق قائلا « شاول، لم تضطهدني ا »، فأصبح أكبر الدعاة إلى الدين وقام بثلاث رحلات تبشيريّة زار أثناءها قبرص وآسيا الصغرى ومقدونيا واليونان وأسّس كنائس في المدن الكبيرة. ويروى أنه قتل بروما سنة 64 أو 67 . ولبولس رسائل كثيرة في العهد الجديد وقد وجّهها إلى روميّة وكورنثوس وغلاطية وأفسوس وتسالونيكي . . . إلخ . . .

* بياتري : PIETRI Pierre-Marie (1809 - 1864)

سياسي فرنسي، نائب كورسيكا في المجلس التأسيسي سنة 1848 ، تولّى رئاسة الشرطة بعد ولائه للنظام الامبراطوري سنة 1853 ثم استقال بعد محاولة أورسيني Orsini اغتيال الامبراطور سنة 1858 . انتخب في مجلس الشيوخ ونظّم استفتاء السافوا عام 1860 .

* بيرانجي : BERANGER Pierre Jean De (1780 - 1857)

قوّال فرنسيّ كان ينظم الأغاني ذات الطابع الوطني

والسياسي وقد لقيت أعماله رواجا كبيرا وأشهرها (الملك ـ إله الناس الطيبين ـ والجدة) .

* بيسمارك : BISMARCK (otto) (1898 - 1815)

الأمير أوتّو فون بيسمارك سياسيّ ورجل دولة بروسيّ . كان الوزير الأول لملك بروسيا غليوم الأول وواحدا من أهمّ صانعي الوحدة الألمانيّة . وباحتلاله لبعض الأراضي الدانماركيّة بوّأ بروسيا المنزلة التي كانت تحتلّها النمسا في الكنفدارليّة الجرمانيّة . وبعد انتصاره على الامبراطوريّة الفرنسية الثانية في حرب 1870 ـ 1871 ، تمكّن من جعل ألمانيا قوّة استعمارية . أرغم على التخلّي عن الحكم بعيد ارتقاء غليوم الثاني إلى العرش (1890) .

(ت)

* ترتوليانوس : TERTULLIEN(155 - 222)

أوّل كاتب مسيحيّ باللغة اللاتينية . ولد وتوفّي بقرطاج ، وتحتوي تآليفه على مهاجمة الوثنيّة (إلى الوثنيين) والدفاع عن المسيحيّة وقد ترك هذا الرائد مجموعة من المبادئ المذهبيّة كان لها أكبر الأثر في تكوين اللغة اللاّهوتيّة اللاتينيّة .

* تيارس : THIERS Adolphe (1797 - 1877)

رجل دولة ومؤرخ فرنسي، نشر تاريخ الثورة سنة 1827 وساهم في إرساء (ملكيّة جويلية) عام 1830، سمي وزيرا للماليّة ثم للداخلية ومرّتين رئيسا للبرلمان ووزيرا للخارجيّة، لكنه لم يستطع إنقاذ لويس فيلبّس الأول من السقوط عام 1848. وانتخب نائبا مرّات كثيرة فكان زعيم المعارضين أثناء الجمهورية الثانية. ثم طالب الامبراطوريّة بالحرّيات الأساسيّة. وسمّي سنة 1871 رئيس السلطة التنفيذيّة فعقد الصلح مع ألمانيا وسحق انتفاضة الكمّونة. وظلّ حتى وفاته مناصرا للجمهورية.

* تيك : TIECK Ludwig (1773 - 1853)

أديب ألماني وجّه الرومنطيقيّة في ألمانيا نحو الخيالات الغريبة بتآليفه الكوميديّة (العالم بالمقلوب 1798) وبدراماته وخرافاته (فانتاسوس 1812 ـ 1816). يعدّ من أهمّ الرومنطيقيين الألمان.

(ج)

* جيراردان : GIRARDIN (Emile de) (1806 - 1881)

رجل قانون وسياسيّ فرنسيّ وأحد روّاد الصحافة العصريّة. أسّس أوّل الجرائد السياسيّة الكبرى الموجّهة للجمهور

العـريض بتخفيض الأسعـار وذلـك باستخدام الإعلانات والإشهار. كما أحدث فيها كذلك الروايات المسلسلة.

* دانتون : DANTON Georges Jacques (1759 -1794)

سياسيّ فرنسيّ وعضو في مختلف المجالس الثوريّة الفرنسيّة ووزير العـدل وعضو المجلس التنفيذي المؤقت في 1792. كان خطيبا كبيرا لا يجارى. ثم انتمى إلى حزب الجبليّين، لكنه طالب بعد فصله بنهاية الإرهاب ودخل في مفاوضات سريّة مع أعداء فرنسا فاتهمه روبسبير بالخيانة والتواطؤ وأعدم يوم 5 أفريل 1794.

* دانتي : DANTE ALIGHIERI (1265 - 1321)

شاعـر إيطالي من فلورنسـا. لعب في بداية حياتـه دورا سياسيّا في مدينته مما تسبّب في الحكم عليه بالإعدام ونفيه. ألّف قصائد حبّ وأناشيد تغنّى فيها بمحبوبته « بياتريس » وقـد حوّل هذه المغـامـرة إلى تجربة أدبيّة وفلسفية. ألّف في الفلسفـة والمسـائـل العلميّة والسياسية واللغة، لكن مؤلفه « الكوميديا الإلهيّة » يجعل منه أب الشعر الإيطالي.

* دوليكليز : DELESCLUZE Charles (1809 - 1871)

سياسي فرنسي وجمهـوري من أقصى اليسار. أشرف في نهاية الامـبراطـورية على جريدة « اليقـظة » التي تسبّبت في

سجنه عديد المرات . ثم صار عضوا في الكمّونة وقتل مدافعا عنها من قبل جيوش فرساي يوم 25 ماي 1871 .

* دوماس : DUMAS Jean Baptiste (1800 - 1884)

كيمائي وسياسيّ فرنسي . صاحب اكتشافات كيميائية كثيرة وواضع نظريّات علمية . كان وزيرا للفلاحة والتجارة سنة 1850 ورئيسا للمجلس البلدي بباريس سنة 1859 .

* ديدرو : DIDEROT Denis (1713 - 1784)

كاتب وفيلسوف فرنسي اعتبر في عصره الفيلسوف الأمثل . صاحب عبقريّة متعدّدة الجوانب فهو الذي أنشأ النقد الفنّي « صالونات » وهو الذي وضع شكلا روائيّا جديدا « جاك القدري » ووضّح العلاقة بين العلم والميتافيزيقيا « رسالة حول العميان » وجسّم جماليّة دراميّة جديدة « الابن الطبيعي » ورسم حياته الصاخبة وفنّه « حفيد رامو » لكن المجد الذي عرفه يعود إلى « الموسوعة » التي أدارها عشرين عاما .

* ديفارنوا : DUVERNOY Georges Louis (1777 - 1855)

عالم تشريح وعالم حيوانات فرنسيّ ألّف بمعية كوفيي Cuvier « دروس في التشريح المقارن » .

* ديكارت : DESCARTES Réné (1650 - 1596)

فيلسوف ورياضيّ وفيزيائي فرنسي. سافر سنة 1629 إلى هولاندا حيث استقرّ عشرين عاما تخلّلها سفر إلى الدانمارك وثلاثة إلى فرنسا وتوفّي بالسويد. اكتشف مفاهيم البصريّات الهندسيّة وعلم الجبر متعدّد المخارج وأسّس ميتافيزيقيا متحرّرة نهائيّا من تهويمات السّكُولاَسْتِيكِيِّين، وتقوم على منطق الفكرة الواضحة بعد أن هدم كل المعطيات المسبّقة ولم يبق إلا على يقين التفكير الذي يشكّ ثم خلص إلى وجود من يفكّر وإلى وجود الله، وانتهى من كل ذلك إلى وجود العالم الخارجي. من أهم تآليفه « مبادئ الفلسفة » و « مقالة الطريقة » و« تأملات ميتافيزيقيّة ».

* روبسبيير : ROBESPIERRE Maxmilien de (1794 - 1758)

سياسيّ فرنسي وممثل الطبقات الشعبيّة في المجلس التأسيسي (1789). فرض مثاله السياسي في نادي اليعقوبيين، الذي استوحاه من جان جاك روسّو. كان خصم الأرستقراطيين العنيد ورافضا للحرب كذلك. وهذا ما جعله يتواجه مع الجيرونديّين الذين ساهم في إقصائهم بعد انتمائه إلى « الجبل » وجعلته الأخطار التي تحوق بالثورة يمركز السلطة ويؤسسها على الفضيلة والإرهاب فقضى على الهيبرتيين ثم الدانتونيّين وحاول ان يفرض في فرنسا عقيدة الكائن الأسمى حتى أطاحت به مؤامرة وأعدم صحبة رفاقه.

* روسّو : ROUSSEAU Jean Jacques (1712 - 1778)

فيلسوف ومؤلّف باللغة الفرنسيّة ولد في جنيف بسويسرا. عصاميّ التكوين بعد تخلّي أبويه عنه منذ طفولته فعاش وحيدا وغَيْرَ مَفْهُوم، واستخلص من تلك التجارب فلسفته المتعلّقة بالانسان الحرّ الباحث دوما أثناء رحلته داخل ذاته عن سرّ سعادة الآخرين وتفاهمهم. والآلام التي يقاسيها البشر هي حسب رأيه لغويّة وسياسيّة ناتجة عن سوء استعمال للغة واضطهاد من المجتمع للإنسان الخيّر بطبيعته. وتتّسم كتاباته بنقد أسس المجتمع الفاسد والبحث عن وفاق البشر. أشهر تآليفه الكثيرة « في العقد الاجتماعي » و « إميل » و« الاعترافات ».

* روايّي كولار : ROYER-COLLARD (Pierre Paul) (1763 - 1845)

سياسيّ فرنسي، محام وأستاذ فلسفة بجامعة السوربون من 1811 ـ إلى 1814، انتخب نائبا سنة 1815 فكان زعيم العقديّين.

* رووير : ROUHER Eugène (1814 - 1884)

سياسيّ فرنسي، محام ونائب جمهوريّ (1848 ـ 49) نادى بقضيّة لويس نابليون الذي أضحى فيما بعد نابليون الثالث، عينّ مرّتين وزيرا للعدل، ونائب رئيس مجلس الدولة سنة 1856. ثم أصبح وزيرا للدولة فوزيرا للفلاحة

والتجارة. كان له نفوذ واسع في نهاية حكم الامبراطوريّة وأصبح من 1872 إلى 1881 زعيم حزب البونابرتيّين الحقيقي.

(ز)

*** زرادشت : ولد حوالي 700 ق. م.**

مصلح الديانة الفارسيّة القديمة. ومعظم أحداث حياته أسطوريّة. نشأ في عائلة دينيّة وانعزل في العشرين من عمره ليحيا حياة التأمّلات الروحيّة. تلقّى الوحي من أهورا مزدا وأصبح نبيّ المجوسيّة. فَلَقِيَ معارضة رجال الدين وقاسى محنا كثيرة قبل أن يحظى بحماية الملك « فيشتاسبا » وتنتشر عقيدته. وتجعله الأساطير يغتال في السبعين من عمره. يبشّر مذهبه بأخلاق عمليّة تقوم على يقين انتصار العدل.

(س)

*** سبينوزا : SPINOZA Baruch (1632 - 1677)**

فيلسوف هولنديّ أنكره أبواه وتبرّأت منه الجالية اليهوديّة بأمستردام، اطّلع على مختلف الثقافات واتصل بكثير من مفكّري عصره مثل لايبنيتز. عاش أربعين عاما من النبذ

والمنفى بسبب أفكاره ولم ينشر في حياته من المؤلّفات إلا قليلا.
يعتقد سبينوزا أن « بهجة المعرفة » تتمثّل في « اتحاد الروح بالطبيعة الكليّة » ويجسّم الله في هذه الطبيعة. ويبيّن كيف يمكن للإنسان إدراكها بالتخلص من الأهواء ومن الأوهام السياسيّة والدينية بسبب شقاء البشر وعبوديتهم. وقد شرح نظريته الحلوليّة في أهمّ تآليفه : « علم الأخلاق (1661 ـ 1665).

* مادام دي ستال : Madame DE STAEL (1766 - 1817)

أديبة فرنسيّة، بنت الوزير نيكار (Necker) وزوجة سفير السويد بباريس. فتحت صالونها الأدبي في بداية الثورة لذوي النزعات السياسيّة المختلفة ثم هاجرت مع النبلاء، وتعرّفت على بنيامين كونستان عام 1794 واضطرّت إلى المنفى من جديد لما غضب نابليون على هذا الأخير فجابت أروبّا. وضعت عدّة تآليف أشهرها « من ألمانيا »)1810 الذي كان له تأثير كبير في الرومنطيقيّة الفرنسية.

* سقراط : (470 ـ 399 ق. م)

فيلسوف إغريقي لم يضع أي مؤلف لأنه كان ضدّ كل تعليم دغمائي بل حاول أ ن يجعلَ الأذهان تعيش المخاض وتلد بعد أن تكتشف الخطأ في وجهات نظرها. كان ذا تأثير عظيم على الشباب الذين اتهم بإفسادهم وعارض طغيان

كريتياس فرمي بالكفـــر وأرغم على تجرّع السم . وتعـــرف شخصيته وفلسفته من خلال كتابات تلميذه أفلاطون وكذلك من بعض أعمال أرسطوفان وقزينوفون .

* جولّس سيمون : SIMON Jules (1896 - 1814)

سياسيّ فرنسي وأستـاذ فلسفـة مهتم بالقضـايا العمّالية ، أوقف عن العمل أثناء انقلاب 2 ديسمبر 1852 . انتخب نائبـا للمعارضة الجمهورية من 1863 إلى 1870 ثم عيّن وزيرا في حكومة الدفاع الوطني حتى سنة 1873 ثم رئيسا للحكومة سنة 1876 وأرغم على الاستقالة بعد أقلّ من عام .

(ش)

* شليقل : SCHLEGEL (Auguste Wilhelm Von) (1845-1767)

أديب ألماني ، بعد أن عمل في مجلّة كان يديرها قوته Goethe استقرّ ببرلين وأسّس بمعيّة الشاعرين ، تيك Tieck ونوفا ليس Novalis والفيلسوف فيخته Fichte وشلّينق Schelling أوّل جماعة رومنطيقيّة . ارتبط بمدام دي ستال وكان له تأثير هام في كتابها « من ألمـانيا » ترجم شكسبـير وكلدرون . وكان يغلب عليه جانب التنـــظير أكثـر من الشعـر ويعـارض في الآن نفســه الكلاسيكيّـــة الفـرنسيّة ومثاليّة شيلّر Schiller أشهر مؤلفاته « دروس في الأدب الدرامي » .

* **شاتوبريان : (CHATEAUBRIAND François René (1848-1768**

أديب فرنسي، كان في شبابه ضابطا في الجيش مولعا بالأدب والفن. شهد بداية الثورة قبل أن يهاجر إلى أمريكا بحثا عن الجاه والثروة. ثم جرح في جيش النبلاء المهاجرين ونفي إلى أنقلترا حيث عاش البؤس وألّف كتابا ضمّنه حكمه على عصره وعلى حياته الشخصيّة « بحوث حول الثورات » 1797 . ثم عاد إلى فرنسا ليحاول إرساء النظام الأخلاقي من جديد « عبقرية المسيحيّة » وليعلن ميلاد الرومنطيقية « روني » و « أتالا » وجمع حوله الشبان الرومنطيقيّين وسخّر آخر حياته الأدبيّة إلى قصيدة حياته وعصره التي أسماها « مذكرات من وراء القبر » .

* **شارلمان : (CHARLEMAGNE (814-742**

ملك فرنسا وامبراطور الغرب قام بحروب كثيرة وانتصر في معارك عديدة ونشر المسيحيّة حيث انتصر لكنه فشل في حرب الأندلس. توّجهُ البابا امبراطور الرومان سنة 800 . فنظّم امبراطوريته وراقب إدارتها. وشجّع نهضة أدبيّة حقيقية واستدعى رجال الأدب وأنشأ مدرسة القصر وعدّة محارف فنية داخل القصر، كما طوّر العلاقات التجاريّة مع الشرق. وفي سنة 813 توّج ابنه « لويس التقيّ » .

* شلينق SCHELLING Freiderich Wilhelm Joseph Von (1775 - 1854)

فيلسوف ألماني، تلميذ هيقل وصديق قوته وفيختته. نجح في حياته المهنيّة وتقلّب في عدّة وظائف سامية منها السكرتير العـام لأكـاديميّة الفنون الجميلة بمونيخ وأمين المجموعات العلميّة. وقد وضع في فلسفته نظام مثاليّة موضوعيّة يعرّف فيها « الأنا » على أنه وحدة الروح والعالم. فالطبيعة هي تجلّي المطلق الأول وإحساس الطبيعة هو الوساطة بين الانسان والألوهة.

* شيشرون : CICERON (106 - 43 ق. م)

رجل سياسة وخطيب روماني. بدأ حياته السياسيّة محاميا فهاجم بعض مشاهير السياسيين الرومان ودافع عن الصقليّين ضدّ حاكمهم. سمّي قنصـلا سنة 63 وبعد مقتل يوليوس قيصر هاجم أنطونيوس وانتهى بدوره مقتولا. ورغم أنه كان سياسيّا فاشـلا فقـد جعـل البـلاغـة الـلاتينيّة تبلغ الذروة وأصبحت خطابـاتـه تتخـذ أمثلة. وتحتـلّ كذلـك مؤلفـاته الفلسفيّة ومراسلاته المكانة العليا في تاريخ الآداب اللاتينية.

(ص)

* صولون : SOLON (640 - 558 ق. م)

رجل دولة أثينيّ وواحد مـن حكماء اليونان السبعة، يرتبط

اسمه بالاصلاح الاجتماعي والسياسي الذي نتج عنه ازدهار أثينـا. وقـد وضـع صولـون أسس ما سيعـرف فيما بعـد بالديمقراطيّة الأثينيّة بعد أن أضعف سلطة العائلات الكبرى وأنشأ اتزانا اجتماعيّا بتقوية طبقة وسطى من الملاك الصغار والمتوسطين.

*** غليوم الأول : GUILLAUME 1 er (1797 - 1888)**

ملك بروسيا (1861 ـ 1888) وامـبراطـور ألمانيا منذ 1871. حكم في بادئ الأمـر باسم أخيه المصـاب بمرض عقلّي ثم خلفه على العرش. اتخذ بيسمارك وزيره الأول وطوّر الجيش الـبروسيّ. تحالف مع النمسـا ليهـزم الدانمارك سنة 1864 ثم ضرب حليفتـه بجيوشـه وهـزمها في سادوفا سنة 1866 وانتصر على فرنسا عام 1871 وانتزع منها بمقتضى معاهدة فرنكفورت الألزاس وقسما من اللورين. ومكّنته هذه الحـروب الثـلاث من تحقيق الوحدة الألمانية. وأعلن غليوم الثاني امبراطور ألمانيا في قصر فرساي يوم 18 جانفي 1871.

(ف)

*** فارلان : VARLIN Eugène (1839 - 1871)**

ثوريّ فرنسيّ، عامل مجلّد، وسكرتير الخليّة الفرنسية في الأمميّة الأولى عند تأسّسها سنة 1864. انتخب نائب باريس

سنة 1871 وعضو الكمّونة المكلّف بالماليّة. أعدمه جيش فرساي رميا بالرصاص يوم 28 ماي.

* فاقنر : WAGNER Richard (1813 - 1883)

موسيقيّ ألماني صاحب أعمال موسيقيّة كثيرة منها « تانهاوزر » 1843 - 45 و « تريستان وإيزولد » 1857 - 59. كان عبقريّا فذّا يكتب بنفسه النصوص التي تصاحب موسيقاه وكان يستلهمها من الأساطير الألمانية. ثار على المفهوم التقليدي للأوبرا وجعل الموسيقى والنص يرتبطان ارتباطا وثيقا. أعماله مليئة بالرموز والشاعريّة. تعرّف في شبابه إلى باكونين، وكان يعتقد أن فنّه هو الوسيلة التي تستعيد من خلالها الإنسانية أصالتها.

* فانيني : VANINI Giulio Cesare (1558 - 1619)

فيلسوف إيطالّي، درس الفلسفة واللاّهوت في روما ثم رسم قسّا وسافر إلى مدن إيطاليّة عديدة وإلى ألمانيا وانقلترا، ثم استقرّ في ليون بفرنسا قبل أن يضطرّ للهروب منها خوفا من التهديدات التي كانت تحوق به بسبب حريّة تفكيره وآرائه. نشر أربعة حوارات بالسوربون لكنها أحرقت واضطرّ للفرار إلى تولوز حيث مارس الطب. وإثر الوشاية به، حكمت الكنيسة بحرقه حيّا بعد قلع لسانه. وتقوم فلسفته على حلوليّة عنيفة تهاجم المعجزات وتنكر خلود الروح والخلق. وكان فانيني يبشّر بالأبيقوريّة والتسامح وينبذ الأخلاق.

* فلوري : FLEURY Emile Felix (1815 - 1884)

جنرال فرنسي ساهم مساهمة فعّالة في انقلاب 2 ديسمبر 1851 فكلّفه نابليون الثالث بعدّة مهمّات ديبلوماسيّة وعيّنه سنة 1869 سفيرا بروسيا. وبعد حرب 1870 قاد الحزب البونابرتي إلى آخر حياته كما كتب مذكّرات على درجة من الأهمية.

* فولتير : VOLTAIRE François Marie Arouet (1694 - 1778)

مفكر فرنسي بدأ حياته القلميّة بمهاجمة السلطة وسجن بالباستيل وبعد فترة منفى دامت ثلاث سنوات قضّاها بانقلترا وامتدحها في « رسائل فلسفية » (1734) تقلّب في عدّة بلاطات أوروبيّة. كان معجبا بالقرن السابع عشر وحاول أن يُضَاهِي الكتّاب الكلاسيكيّين في ملحمة « الهنرياد » والمسرحية التراجيديّة « زايير » كانت أوروبا تعتبره في عصره أمير الفلسفة والتفكير الفلسفي الذي نشره في قصائده وخرافاته. كتب أيضا معجما للفلسفة وألّف في التاريخ. ومجّدته البرجوازيّة الليبراليّة والمعادية للإكليروس.

* فويّو : VEUILLOT Louis (1813 - 1883)

صحافي فرنسي ورئيس تحرير « العالم » وقد جعل من هذه الجريدة أكبر مدافع عن الكاثوليكيّة المتصلبة. وبعد أن حمل على الجامعة (1844 ـ 1848) هاجم الجمهوريّة الاشتراكيّة

(1849 ـ 1851). ثم سار في ركاب الامبراطوريّة لمقاومة الكاثوليكيّين الليبراليين، إلا أن جريدته أوقفت بسبب نقده العنيف لسياسة الامبراطور (1861) ولما عادت إلى الظهور بعد ستّ سنوات، سخّرها لخدمة البابويّة المتطرفة وللتبشير بعصمة البابا.

* فويرباخ : FEUERBACH Ludwig (1804 - 1872)

فيلسوف ألماني تتلمذ على هيقل فتأثّر به وبالصوفية الألمانيّة لما نشر : « تأملات في الموت والخلود » (1830) ثم انفصل عنـــه لما كتـب : « نقـــد الفلسفـــة الهيقلية » (1839). واصطدم بنظام الدولة الاقطاعيّة البروسيّة التي كانت تتدعّم بمراقبتها للكنيسة، فانخرط في نقد مزدوج للمسيحيّة ولتلك الدولة فكتب « جوهر المسيحيّة » (1841) الذي ترك أثرا بليغا في الحلقات الهيقلية. واجتهد في هذا المؤلّف في تأسيس ماديّة جديدة تقـوم على نقدَ فكرة الله، وتكمن طرافته التي شهـد له بها ماركس وانقلس رغم تجنبها، في إرجاع ظهور الدين إلى دائرة أعمال الإنسان. نشر كذلك « جوهر الدين ».

* فيردير : WERDER August (1808 - 1887)

الكونت فون فيردير جنرال بروسيّ قاد جيش ستراسبورق في بداية حرب 1870 ثم عينّ على رأس الفيلق الرابع عشر

فاحتلّ ديجون في 30 أكتوبر لكنه اصطدم فيها بعد بصمود جيش بورباكي وراء خطّ الليزان (La lisaine) في جانفي 1871 .

* فيرنر : WERNER Zacharias (1768 - 1823)

كاتب مسرحي ألمـــاني ألّف عدّة درامـات استلهم فيهـا الصوفيّة . من أهمّ أعماله « يوم الرابع والعشرين من فيفري »

* فيخته : FICHTE John Gottlieb (1762 - 1814)

فيلسوف ألماني تلميذ كانط وأستاذ شلّينق . درّس الفلسفة بجامعة إيينا بعد أن اِشتهر إثر بعض التآليف في الثلاثين من عمـره . فلسفتـه مثـالية مطلقـة يكوّن « الأنا » فيها المفهوم الأساسي الذي يبرّر وجود العالم ويعطيه معناه . اتّهم بالإلحاد فغادر إيينا سنة 1799 واستقر ببرلين متفرّغا للتأليف الفلسفي .

* فيلّومان : VILLEMAIN Abel François (1790 - 1870)

أستاذ وسياسيّ فرنسيّ تولّى وزارة التعليم من 1840 إلى 1844 وسعى إلى إصلاح التعليم الثانوي . كان أحد روّاد الأدب المقارن . من تآليفه : « دروس في الأدب الفرنســي » و« دراسات في الآداب القديمة والأجنبية » .

* جولّس فافر : FAVRE Jules (1809 - 1880)

رجــل قانــون وسـياسيّ فرنسي، جمهــوري معــارض للامبراطورية. اقترح في سبتمبر 1870 خلع الامبراطور وكان عضـوا في حكـومـة الـدفـاع الوطني بصفته وزيرا للشؤون الخارجيّة فكان عليه أن يقوم بمفاوضات عسيرة مع بيسمارك. وهو الذي أمضى الصلح ووقّع على معاهدة فرنكفورت عام 1871.

* قاريبالدي : GARIBALDI Giuseppe (1807 - 1882)

وطني إيطالّي حارب من أجل وحدة إيطاليا فواجه النمسا في أوّل الأمر ثم مملكة الصقليتين (بعثة الألف سنة 1860) والبابويّة وبعد انتصارات متعدّدة، انهزم في أسْبْرُو مُنْتي سنة 1862. ومِنْتَانا عام 1867. وفي سنة 1870 دخل في خدمة فرنسا.

* قاليلي : GALILEE (1564 - 1642)

فيزيائي وفلكي إيطالي اكتشف قوانين فيزيائية كثيرة مثل قوانين سقوط الأجسام سنة 1602 وعرض مفهوم السكون وقانون تكوّن السرعات. من أول صانعي المجهر وصاحب المنـظار الـذي يحمل اسمه والذي اهتدى بفضله إلى رؤية تضاريس القمر واكتشاف الكواكب التابعة للمشتري وأوجه الزهرة. وافق على نظام العالم الذي اقترحه كوبرنيك والذي

كانت تعتبره روما كفرا. وأمام تهديدها بإيقافه عن العمل انحنى قاليلي. إلا أنه نشر عند عودته إلى فلورنسا سنة 1632 كل البراهين على دقّة ذلك النظام. وعندئذ أجبرته محاكم التفتيش الكنيسيّة على التبرّؤ من كل كتاباته.

* قامبطّا : GAMBETTA Léon (1838 - 1882)

محام وسياسي فرنسي، ليبيرالي المذهب، خطيب فذّ ومعارض للامبراطوريّة انتخب نائبا جمهوريّا سنة 1869 وأعلن الجمهورية عام 1870 وانتمى إلى الحكومة المؤقتة للدفاع الوطني. قاد التحالف الجمهوري في المجلس الوطني وانتصر في الانتخابات التشريعيّة لسنة 1876. رأس المجلس سنة 1879 فاصطدم بمعارضة شديدة من جولّس قريفي Jules Grevy ومن الراديكاليّين، لذلك لم تدم « الوزارة الكبرى » التي كان يترأسها سوى بضعة أسابيع.

* قسطنطين : CONSTANIN 1er (280 - 337)

امبراطور روماني. خلف أباه على العرش وظلّ يقاتل مدّة خمس عشرة سنة منافسيه الستّة على الحكم. في عهده انتصرت المسيحيّة وأصبحت دين الامبراطوريّة الرسمي رغم توقيعه على مرسوم يضمن حرية المعتقد. كان يعتبر الكنيسة من أهمّ أسس الدولة لذلك كان يتدخّل مباشرة في المسائل الدينية. وحّد الامبراطوريّة وأسّس روما الجديدة وأطلق عليها

اسم القسطنطينية. وفي عهده اتخذت الامبراطوريّة شكل ملك ذي حقّ إلهي متمركز ومعتمد على مجتمع شديد الطبقيّة.

* قوته : (GOETHE (Johann Wolgfang Von) (1832-1749

أديب وسياسي وعالم ألماني، تولّى الوزارة، وأثّر على الحركة الأدبيّة والفكريّة في عصره. ارتبط بصداقة متينة مع شيلّر Schiller وأثمرت هذه العلاقة إنتاجا غزيرا، قام بنشاط سياسي واسع وببحوث علميّة كثيرة لكن موت شيلّر ومرضا ألم به جعلاه ينطوي على نفسه فكتب الجزء الأول من رائعته « فاوست » ثم كتب في آخر حياته يحاسب نفسه عن حصيلة أوهام حياته وعصره. من أشهر تآليفه كذلك « آلام فرتر » و « شعروحقيقة » توفّي محاطا بأسباب النجاح والمجد.

* قيزو : GUIZOT François (1874 - 1787)

رجل دولة ومؤرخ فرنسي، بروتستانتي، وأستاذ التاريخ الحديث في السوربون، شغل منصب السكرتير العام في وزارة الداخلية سنة 1814 ثم التحق بخدمة لويس الثامن عشر. صار زعيم العقديّين وساهم في الإطاحة بشارل العاشر. زعيم المحافظين أثناء ملكيّة جويلية، ووزير التعليم (1832 ـ 1837). ومنذ سنة 1840 أصبح سيّد البلاد الفعلّي سواء بوصفه وزيرا للخارجيّة أو رئيس المجلس فوقف ضدّ كل

إصلاح انتخابي. وأدّى سقوطه في 23 فيفري 1848 إلى سقوط الملكيّة البرجوازية.

* قريقوريوس السابع : GREGOIRE VII (1085 - 1020)

بابا المسيحيّة من 1073 إلى 1085 . اشتهر بمعاركه ضدّ الامبراطور هنري الرابع وهزمه في كانوسّا سنة 1077 ثم أرغمه على أن يعيش في المنفى، كما عرف أيضا بالتدابير الكثيرة التي اتخذها فيما يخصّ النظام الكنيسي والتي تتنزل في إطار ما يسمّى بالاصلاح القريقوريّ.

(ك)

* كاسّانياك : CASSAGNAC Bernard Garnier de (1880 - 1806)

رجل قانون وسياسيّ فرنسي ورئيس تحرير صحف عديدة. كان معروفا بمجادلته العنيفة وناصر سياسة قيزو كما كان الخصم العنيد لجمهوريّة 1848، حالف لويس نابليون وانتخب نائبا سنة 1852 واحتفظ بمقعده إلى حدّ سقوط الامبراطوريّة. وقد دافع عن أفكاره الاستبدادية سواء على المنابر أو في الصحف، وعارض الإصلاحات الليبيرالية بكلّ عنف. بقي إلى آخر حياته يناصر الحكم الامبراطوري. من أعماله : « تاريخ أسباب الثورة الفرنسية » 1850 .

* كانط : KANT Emmanuel (1724 - 1804)

فيلسوف ألماني، من أشهر تآليفه : « بحث في شكل العالم المحسوس والعالم المعقول » و « نقد العقل الخالص » و « نقد العقل العملي » وتحاول فلسفته الإجابة عن التساؤلات الآتية : « ماذا يمكن أن أعرف ؟ »، « ماذا يجب أن أفعل ؟ »، « هل من المسموح لي أن آمل ؟ » وكما جعل كوبرنيك الشمس مركز مدار الكوكب، جعل كانط العقل مركز العالم. وقد شملت هذه الثورة الكوبرنيكيّة في فلسفته الميدانين النظري والعملي (الأخلاق) فالإنسان يمكنه إعداد فيزياء تتعدّل فيها موادّ المعرفة على طبيعة الموضوع المفكّر، وقانون أخلاقي يخضع له عقله العملي.

* كوبرنيك : COPERNIC Nicolas (1473 - 1543)

فلكيّ بولوني، هو أوّل من زاحمت مؤلفاته كتابات بطليموس التي كانت تسيّر علم الفلك منذ أربعة عشر قرنا. وحسب النظام الكوبرنيكي تحتلّ الشمس مركز العالم وتدور حولها عطارد والزهرة والأرض (التي ليست سوى كوكب بين الكواكب) والمرّيخ والمشتري وزحل. وفوق المدارات الكوكبيّة توجد الدائرة الساكنة للأنجم الثابتة. وتتم الأرض دورتها حول الشمس خلال سنة وتكمل دورتها حول نفسها في ظرف أربع وعشرين ساعة.

* كوريي : COURIER Paul Louis (1772 - 1825)

كاتب فرنسي هجر سلك العمل العسكري ليدرس المخطوطات الإغريقية في المكتبات الإيطاليّة، ثم عاد إلى فرنسا وساند بأهاجيه المعارضة الليبيراليّة حتى وقع اغتياله في غابة « لارسي » ترك بعض المؤلفات ومجموعة من « الرسائل المكتوبة في فرنسا وإيطاليا ».

* كوزان : COUSIN Victor (1792 - 1867)

فيلسوف فرنسي وعضو في الأكاديمية الفرنسية (1830)، وزير التعليم (1840) حاول تبسيط الفلسفة وتقريبها من الحسّ العامّ ليجعلها في خدمة الملكيّة الدستوريّة. وتتكوّن نظريّته من خليط من فلسفة سكوتلنديّة، ومن أفكار مان دي بيران Maine de Biran ، ومن مثاليّة متأثّرة بكانط ومن لاهوت مسيحي. كتب « من الحق والجمال والخير» سنة 1853.

* كونت : COMTE Auguste (1798 - 1857)

فيلسوف فرنسي ومؤسس الفلسفة الوضعيّة. وقد كان كتابه « دروس في الفلسفة الوضعيّة » وراء ظهور تيّار فكري طبع القرن التاسع عشر بطابعه، تقول فلسفته إن قانون تاريخ الفكر البشري يمرّ بأطوار ثلاثة هي الطور اللاهوتي ثم الميتافيزيقي ثم الوضعي. « وليس غير الفكر الوضعي يمثّل

تحوّلا حقيقيا للتفكير في موضوع البحث كما في طريقته »
وتتمثل الوضعيّة في تطبيق الطرق المستعلمة في الرياضيات
والعلوم التجريبيّة على الظواهر الاجتماعية والسياسيّة
لاستخراج القوانين التي تسيّر بناء المجتمعات وتطوّرها.
وهكذا أسّس كونت « فيزياء اجتماعيّة » أو علم الاجتماع
الذي صنّفه ضمن علوم الملاحظة.

* كونستان : CONSTANT Benjamin (1767 - 1830)

سياسي وكاتب فرنسي. كان له وزن كبير في حزب
الليبيراليّين أثناء ملك لويس الثامن عشر. ارتبط بمدام دي
ستال واشتهر بروايته النفسيّة « أدولف » 1816 كان معارضا
للاستبداد الامبراطوري زمن نابليون الأول قبل عودة الحكم
الملكي لكنه ظلّ زعيم التحرّريين وساهم في ثورة 1830.

* كونفوشيوس : CONFUCIUS (551 - 479) ق. م)

مفكّر وفيلسوف صيني تهتمّ فلسفته بالأخلاق والسياسة
على وجه الخصوص. كان همه الأول أن يستتبّ الأمن وذلك
بتكوين أناس يعيشون ممتثلين للفضيلة التي يجعلها القيمة
السامية في أخلاقه. وتولّد عن أعماله واحد من أهم تيّارات
الفكر الصيني وهو الكونفوشيانيّة التي ظلّت مرجعا لكثير من
المفكرين والسياسيّين الصينيين إلى يومنا هذا.

* كيني : QUINET Edgar (1803 - 1875)

مؤرخ فرنسي متخصّص في التاريخ الألماني وأستاذ الأدب في « الكولّيج دي فرانس » أدخل في تعليمه تحرّره الرومنطيقي ومعاداته للإكليروس ولليسوعيّين بالخصوص وحبّه للثورة، لذلك أوقف عن التدريس سنة 1846 . مثّل الشعب سنة 1848 ونفي بعد انقلاب 1851 . فاستقرّ ببروكسال ثم في سويسرا وأصبح واحدا من أكبر الزعماء الروحيين للجمهورية ولحرية التفكير. من تآليفه : « إيطاليا » (1852) و « الروح الجديد » (1874).

* لامارتين : LAMARTINE (Alphonse De) (1790 - 1869)

شاعر فرنسي عرف الشهرة منذ أوّل مجموعة شعريّة غنائيّة نشرها سنة 1820 وهي « التأمّلات الشعرية » وظلّ جيل الشعراء الرومنطيقيين الشبان يمجّدونه على أنه زعيمهم إلى حدّ 1830 كما نشر « جوسلان » و« سقوط ملاك » وبعد ذلك وضع قلمه في خدمة الأفكار التحرّريّة فكتب « تاريخ الجبيروندّيين » وانتمى إلى الحكومة المؤقتة وتولّى وزارة الشؤون الخارجيّة في فيفري 1848 وأصبح سيّد فرنسا الفعلي لمدّة بضعة أسابيع . لم يجن من ترشّحه للانتخابات الرئاسيّة سوى أصوات قليلة فلم يكتب بعد ذلك إلا نصوصا عن سيرته الذاتيّة ليسدّد ديونه، مثل « الاعترافات » . (1849) .

* لايبنيتز : LEIBNIZ Gottfried Wilhelm (1716-1646)

فيلسوف ورياضيّ ألماني نشر منذ العشرين من عمره بحثا في التحليل التوافيقي، وارتبط بعلماء ومفكري زمانه مثل باسكال وسبينوزا. اكتشف أهم قواعد الحساب التفاضلي في نفس الوقت الذي اهتدى فيه نيوتن إليها. وبعد ذلك قدّم برهنة رياضيّة وفلسفيّة على وجود الله الكائن اللامتناهي وخالق العالم. وعلى أن العالم مكوّن من عدد لا متناه من الماهيات نسّق الله بينها مسبّقا. ويظهر العالم للإنسان من خلال عدد لا متناه من وجهات النظر الممكنة يحاول لايبنيتز أن يربط بينها من خلال رياضيّات تستمدّ حقائقها انطلاقا من قواعد منطقيّة.

* لوفاريي : LEVERRIER Urbain (1877 - 1811)

فلكيّ فرنسي بقي اسمه مرتبطا باكتشاف كوكب « نبتون » الذي اهتدى إليه الفلكي الألماني قال « Galle » سنة 1846 بفضل حساباته وبحوثه المختصّة في الميكانيكا السماوية التي حدّدت موقعه.

* ليكورقوس : LYCURGUE (القرن التاسع ق. م).

ليكورقوس سبرتا، مشرّع أسطوري في اليونان القديمة يُنسب إليه التشريع السبارتيّ القديم.

* ماتسيني : MAZZINI Giuseppe (1872 - 1805)

وطني إيطالي وزعيم الذين كانوا يريدون توحيد إيطاليا من خلال الجمهوريّة لجأ إلى فرنسا سنة 1830 وكوّن جمعيّة سريّة أطلق عليها تسمية « إيطاليا الفتاة » فكانت العنصر المحرّك لحركة الوحدة. أمضى حياته متنقّلا حتى مكنته ثورة 1848 من جعل « إيطاليا الفتاة » جمعيّة وطنيّة إيطاليّة. ودخل يوم 5 مارس 1849 إلى روما بعد فرار البابّا منها وأصبح واحدا من حكومة الثلاثة لجمهوريّة روما لكن الحملة الفرنسية أعادت للبـابا نفوذه وأجبرت ماتسيني على العيش في المنفى. ورغم انفضـاض الكثيرين من حوله فقد لعب دورا كبيرا في إتمام الوحدة الإيطالية.

* مانتوفل : MANTEUFFEL Edwin (1885 - 1809)

البـارون مانتوفل ماريشال بروسيّ، رئيس ديوان الحرب سنة 1857، عمل على تشجيع المحافظين. شارك في حروب 1864 و1866 و 1870 وقاد الجيوش الألمانية التي احتلّت فرنسا (1871 ـ 1873) وتولّى بعد ذلك مقاطعتي الألزاس واللورين حتى وفاته.

* جوزيف دي مايستر : MAISTRE (Joseph de) (1821 - 1753)

مفكّر وفيلسوف من مقاطعة السّافوا (La Savoie) عضو في مجلس الشيوخ بالسّـافوا، تحمّس في بادئ الأمر للأفكار

الثـوريّة لسنـة 1789 لكنه أصبح منظّر التيّارات السياسيّة والبابويّة المضادّة للثورة بعد احتلال فرنسا لبلاده، ولجوئه إلى سويسرا ثم إلى سردينيا حيث تولّى وزارتهـا من 1802 إلى 1817 . من مؤلفاته « ملاحظات حول فرنسا » و « عن البابا » .

*** محمد (570 ـ 632)**

محمد بن عبد الله رسول الإسلام، ولد بعد وفاة أبيه عبد الله بأشهر قليلة وتوفيت أمّه آمنة وهو لا يزال طفلا . كفله جدّه عبد المطلّب ثم عمّه أبو طالب . تزوّج خديجة بنت خويلد وهو في الخامسة والعشرين . دعا الناس إلى الاسلام أي إلى الإيمان بالله الـواحـد ورسوله . بدأ دعوته في مكّة فلقي من أهلها الأذى فهـاجر إلى المدينة يثرب حيث اجتمع حوله عدد من الأنصار سنة 622 . انتصر على القريشيين في بدر (624) وغلب في أحد (625) غير أنه عاد فانتصر في معركة الخندق (627) وكان انتصاره الحاسم يوم « فتح مكّة » فدخلها سنة 630 . وكانت وفاته إثر حجّة الوداع سنة 632 .

*** مورافياف : MOURAVIEFF Mikhaïl Nikolaievitch (1866-1796)**

جنرال روسي كان يلقب بصاحب المشانق، وُلّـيَ (قرودنو Grodno) سنـة 1830 فساهم في قمع الانتفاضة البولونيّة الأولى (1831) ثم في قمع الحركة الطلابيّة الليبيرالية بسان

بيترسبورق (1861) ولما وُلّـيَ فيلنيوس Vilnious سنة 1863 سحق الانتفاضة البولونية الثانية بقسوة جعلته يستحقّ ذلك اللقب المرعب.

*** موسى (القرن الثالث عشر - ق. م)**

محرّر بني إسرائيل ومشرّعهم، ويصـوّره الكتاب المقدّس نبيّ العـبريين وزعيمهم، ولـد في مصر الفرعونيّة وكان على رأس المعارضة للاضطهاد الذي كان يلقاه شعبه فكان القائد الـذي أخرج العبريّين من مصر حوالي سنة 1250 ق. م. (سفـر الخروج) والزعيم الذي وحّد الجماعات المختلفة في شعب واحد يدين للإله يهوه بالطاعة.

*** مولتكه : MOLTKE Helmuth (1800 - 1891)**

الكونت فون مولتكه ماريشال ألماني سمّاه الملك فريدريك غليوم على رأس القوّات الحربيّة البروسيّة سنة 1857 فاحتفظ بذلك المنصب واحدا وثلاثين عاما. قاد الجيوش البروسيّة في حروب عديدة ضدّ النمسـا وفـرنسا. وبعد الوحدة الألمانية سمّي ماريشـالا فحـوّل الجيش الكنفدرالي إلى جيش ألماني عتيد. استقال بعد ارتقاء غليوم الثاني إلى العرش بقليل.

*** ميشلي : MICHELET Jules (1798 - 1874)**

مؤرخ فرنسي رئـيس الـقسم التـاريخي بإدارة الأرشيف الوطني وأستاذ بالكولّيج دي فرانس (1838). جعل من

دروسه منبرا لأفكاره التحرريّة والمعادية للإكليروس بينما كان يعدّ في نفس الوقت مؤلّفه الضخم « تاريخ فرنسا » (1833 ـ 1846) و « تاريخ الثورة الفرنسية » (1847 ـ 1853)، حُرم من التدريس وأوقف عن العمل بالأرشيف فسخّر بقيّة عمره لإكمال تآليفه التاريخيّة ولكتابة أعمال عديدة عن عجائب الطبيعة والنفس البشريّة.

* **ميل** : MILL John Stuart (1873 - 1806)

رجل اقتصاد وفيلسوف انقليزيّ، تأثّر بهيوم وسميث فصار واحـدا من أكبر المفكرين الليبيراليّين. كان مناوئا للأعراف الجـارية ومـدافعـا متحمّسا عن حريّة الفرد ضدّ ضغوطات المجتمع والدولة ومناديا بنظام لا تستطيع الأغلبية فيه فرض توجّهاتها على الأقليّة. من أشهر كتبه : « مفاهيم الاقتصاد السياسي » و « الحرية » و « المنفعيّة ».

(ن)

* **نابليون الثالث** : NAPOLEON III (1873 - 1808)

شارل لويس نابليون بونـابـرت امـبراطور الفرنسيين من 1852 إلى 1870، ابن لويس بونـابـرت شقيق نابليون الأول. قضى شبابه مغامرا في سويسرا وإيطاليا ثم حاول سنة 1840 الإطاحة بلويس فيليبسّ وإعلان الامبراطورية لكنه

فشل وحكم عليه بالسجن مدى الحياة لكنه تمكن من الفرار إلى لندن سنة 1846 وبعد الثورة عاد إلى فرنسا ونجح في أن ينتخب رئيسا للجمهورية في ديسمبر 1848 وبعد ثلاثة أعوام حلّ البرلمان وأعلن الامبراطوريّة ومارس حكما استبداديّا إلى غاية 1860 إذ بدأ النظام يتحرّر تدريجيّا. انتصر في حروب كثيرة لكنه انهزم ضدّ بروسيا وخلع في 4 سبتمبر 1870 وأخذ إلى ألمـانيا أسـيرا. ثم غادرهـا بعد أشهر إلى انقلترا ملتحقا بالامبراطورة أوجيني واستقرّ بها إلى آخر أيامه.

*** القدّيس نيكولاي : SAINT NICOLAS**

أسقف من آسيا الصغرى عاش في القرن الرابع. امتلأت حياته بالأساطير المشرقة إذ يروى أنه وهب أكياسا من الذهب لثلاث بنات معوزات وأحيا ثلاثة أطفال بعد موتهم وهذا ما يفسّر سرّ انتشار تقديسه في غرب أروبّا وشرقها. يعتبر شفيع التلاميذ وشفيع روسيا.

*** نوفاليس : Harderberg Friedrich Von NOVALIS (1801-1772)**

البارون نوفاليس أديب ألماني، تابع دروس التاريخ التي كان يلقيها شيلّر في مدينة إيينا، وفيها التقى بالأخوين شليقل وبفيختة الذي تأثّر بمثاليّته تأثّرا عميقا. ووجّهه موت خطيبته إلى التأملّات الصوفيّة «تراتيل للّيل» 1800. ثم انتقل إلى مرحلة التأمّلات الفلسفيّة في ظواهر الطبيعة قبل أن يشارك

بنشـاط في حياة الجماعة الرومنطيقية بإيينا. وترك عند موته مجمـوعـة من الأنـاشيد ورواية لم تكتمـل رسم فيها الشاعر الرومنطيقي الباحث عن المثال.

(هـ)

* هيرقليطس : HERACLITE (540 - 480 ق. م.)

فيلسوف إغريقي لقّب بالغامض بسبب أسلوبه المختصر. وتجعـل فلسفتـه من النـار عنصر الكـون الأساسي ومفهومه الموحّد، وليس ثمّة سوى التفكير والعدل ليجعلا الكائنات تتحرّر شيئا ما، الا أن الخطر يكمن في أنها قد تنسى النار العنصر المـوحّـد الـذي نشـأت منـه. وقـد لعبت فلسفـة هيرقليطس دورا هاما في تفكير الغرب في القديم.

* هيقل : HEGEL George Wilhelm Friedrich (1770-1831)

فيلسوف ألماني درس في شبابه علم اللاهوت ثم اشتغل بالتعليم في الثلاثين من عمره ونشر « حياة يسـوع » 1795 و« نقد فكرة الدين الوضعي » 1796 وكان مشروعه الفلسفي هو « أن نفكّـر الحياة، تلك هي المهمـة » وفي سنة 1801 انتقـل إلى إينيا واتّصـل بشلّينق وأسّس معـه صحيفة لنقد الفلسفة، ولم يلبث أن تخالف معه فانتقل إلى نورمبارق وظلّ ينشر أعـماله الفلسفية حتى انتدب للتدريس بجامعة برلين

وبسط على طلابه فلسفته التي نشرت بعد موته في كتب كثيرة. وتجعل فلسفته الكائن والفكرة في مفهوم واحد ومنه يصف التطوّر بواسطة الجدليّة التي لم يجعل منها منهجا عقليا للتفكير فحسب بل حياة ذلك المعنى المجرّد وتاريخه.

* فيكتور هيقو : HUGO Victor (1802 - 1885)

أديب وشاعر ومفكر فرنسي بدأ حياته الابداعية شاعرا كلاسيكيّا مواليا للملكيّة لكنه لم يلبث أن أصبح أحسن تجسيم للرومنطيقية بعد نشره لمقدّمة « كروموبل » و « هرناني » سنة 1830 وتكاثر إنتاجه في الشعر والرواية التاريخيّة والمسرح بينما اتّسم تفكيره بالتحرّرية وبتمجيد الذات النابليونيّة. وبعد فشل إحدى مسرحياته 1843 ووفاة ابنته اشتغل بالسياسة وانتخب نائبا، لكنه خيّر أن يعيش في المنفى بعد انقلاب 1851 وعاد إلى الانتاج الأدبي بغزارة وإلى تلك الفترة تعود أشهرأعماله مثل « ملحمة القرون » (1859 - 1883) و « البؤساء » (1862). وعاد إلى فرنسا بعد سقوط الامبراطوريّة مناصرا للأفكار الجمهوريّة وأمضى بقيّة عمره يحظى بإجلال الجميع. وأودع رفاته بعد موته بالبانتيون.

(ي)

* **يسوع المسيح** : (7 أو 6 ق. م. 30)
مؤسس المسيحيّة، وهو بالنسبة إلى المسيحيّين المسيح ابن الله ومخلّص الانسانية، بدأ يبشّر في الجليل فاصطدم بمعارضة معاصريه إذ رأى الفريسيّون والصدوقيّون أن دعوته لإقامة ملكوت السماوات كفر وتحريض. ولما قدم إلى أورشليم في عيد الفصح توتّرت الأمور أكثر فأوقف وحكم عليه بالموت وصلب بأمر من الوالي الروماني بيلاطس. وفي الاعتقاد المسيحي قام من بين الأموات وظهر للكثيرين قبل أن يرقى إلى السماء.

يوحنا : JEAN (توفي حوالي سنة 100).
القدّيس يوحنّا واحد من حواريّي المسيح وأخ جاك الأكبر وبطرس، كان يعمل بمعيّة إخوته صيّادا قبل أن يصبح من أوّل تلاميذ يسوع. يقال إنه نصّر آسيا الصغرى وبعد أن نفي في عهد القيصر دوميتيانوس إلى جزيرة باتموس Patmos انتهت حياته الطويلة زمن تراجانوس. ينسب إليه الانجيل الرابع وثلاث رسائل وسفر الرؤيا.

الفهــرس

الصفحة


كتاب المعارف يصدر عن دار المعارف

مؤلفات جلال المخ صدرت عن الدار

1) طغاة العالم

2) أحمد فؤاد نجم من الثورة إلى الخيبة

3) جبران بين المصلوب والمجنون

4) الاله والدولة

5) المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية

تدمك : ISBN 9973 - 16 - 209 - 9

الطبعة الأولى : أفريل 1992

الثمن : 2.500 د.ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.